في رياض المصطفى ﷺ

الدكتور

عثمان قدري مكانسي

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إلى سيدي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

ما أعظمك وما أحلمك وما أرفع خلقك.

أنت يا سيدي مثال الإنسان الكامل ، جعلك الله تعالى سيد الخلق وإمامهم . . . من اقتدى بسيرتك سعد ، ومن سار على دربك نجا ، ومَنِ اهتدى بهديك كان على صراط مستقيم .

فعن وهب بن منبِّه قال : " أَوْحى الله تعالى إلى نبي من بني إسرائيل يقال له شعياء ، أن قمْ في بني إسرائيل ، فإني سأُطلق لسانك بوحيٍ ، فقام ، فقال :

يا سماء اسمعي ، ويا أرض أنصتي ، فإن الله تعالى يريد أن يقضي شيئاً ، ويدبّر أمراً ، وهو منفِّذُه :

إنّه يريد أن يبعث أمّيّاً من الأمّيّين ، ليس بفظٍّ ولا غليظ، ولا سخّاب في الأسواق[1].

لو يمرُّ على السراج لم يطفئه من سكينته ، ولو يمشي على القصب واليابس لم يُسمع من تحت قدميه .

أبعثُه بشيراً ونذيراً ، لا يقول الخنا[2]، أفتح به أعيناً عُمياً وآذاناً صماً ، وقلوباً غلفاً ، وأسدِّدُه بكل أمرٍ جميل ، وأهب له كلَّ خلق كريم . وأجعل السكينة لباسه ، والبرَّ شعاره والتقوى ضميره ، والحكمةَ منطقه ، والصدق والوفاء طبيعته ، والعفو والمعروف خلقه ،

---

(١) السخّاب : كثير الصخب ، يرفع صوته في الأسواق .

(٢) لا يقول الفُحشَ من الكلام .

والحقَّ شريعته ، والعدل سيرته والهدى إمامَه ، والإسلامَ مِلَّتَه ، وأحمدَ اسمه .

وأعرِّف به بعد الفكرة ، وأكثِّرُ به بعد القلّة ، وأغْني به بعد العَيْلة ، وأجمع به بعد الفرقة ، وأؤلّف به بين أمم متفرِّقةٍ ، وقلوب مختلفة ، وأهواء مشتَّتةٍ ، وأستنقذ به فئاماً[١] من الناس عظيماً من الهلكة.

وأجعل أمتَه خير أمَّةٍ أُخرجت للناس ؛ يأمرون بالمعروف وينهَوْن عن المنكر ، موحّدين، مؤمنين ، مخلصين ، مصدقين بما جاءت به رسلي ، ألهِمُهمُ التسبيح والتحميد ، والثناء والتكبير ، والتوحيد[٢]."

فسبحان الله من خلقك فسوّاك فعدَلك ، فجعلك إماماً وهادياً . . صلى الله عليك في الأولين ، وصلى عليك في الآخرين ، وحشرَنا في القيامة تحت لوائك في الآمنين ، الهم آمين ، آمين ، آمنين .

---

(١) الفئام من الناس : الجمع الضخم الكثير .

(٢) مختصر تفسير ابن كثير للشيخ الصابوني ، المجلّد الثالث في تفسير الآية /٤٥ من سورة الاحزاب .

تعال معي ننظر بعين البصيرة لا البصر . ولا نملك إلا هذا . إلى سيّدَيْنَا العظيمين ، أحدهما رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، والآخر جبريل رسولُ الله إلى رسول الله ، صلى الله على جبريل . . فإني أحبه رغماً عن اليهود الذين يكرهونه لأن قلوبهم ملئت حقداً وكرهاً لسيد الملائكة الجليل .

هذا رسول الله ، وجبريل معه يتدارسان القرآن ويتجاذبان أطراف الحديث ، قرب الكعبة ، فقال النبي . صلى الله عليه وسلم . : ((يا جبريل ، والذي بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد سفّةٌ من دقيق ، ولا كفٌّ من سَوِيق)) .

فلم يكن كلامه بأسرع من أن سمع هدَّةً من السماء أفزعته وكانت مجلجلة ، ظنّ رسول الله . صلى الله عليه وسلم . أن الله أمر القيامة أن تقوم ، فتضعضعت السماء .

فقال جبريل مهدئاً من روعه ومسكِّناً خوفه : لا . . إنه ملك نزل من السماء ، لم ينزل منها منذ خلقه الله تعالى .

ونظر الرسول . صلى الله عليه وسلم . إلى عظيم خلقته وجليل صورته وهو يدنو منهما، فملأ عينه ، وسبّح خالقه ، فلما وصل قال لهما : ((السلام عليكما ورحمة الله وبركاته ، . وهذا سلام المسلمين منذ خلق الله تعالى آدم في الجنة ، – فردّا عليه السلام بأحسنَ منه : وعليك السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه . . . فلما تمكن واقفاً التفت إلى النبي . صلى الله عليه وسلم . وقال : إن ربّك يقرئك السلام ، ويقول سبحانه : إنه عزّ شأنه سمع ما ذكرت ، فبعثني إليك بمفاتيح خزائن الأرض ، وأمرني أن أعرض عليك أن أسيّر جبال تِهامة زمُرُّداً ، وياقوتاً ، وذهباً ، وفضّة ، وأمرني أن أجعلك إن شئت نبياً

ملكاً وإن شئت نبياً عبداً .

إن الفطرة لتدعوه أن يختار النبوّة مع العبوديّة ، فأعلى مراتب الإنسان العبوديةُ لله تعالى: (سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى) [الإسراء : الآية ١] ونظر إلى جبريل يستشيره ، فرآه يوحي إليه : أن تواضَعْ . فالتواضع يرفع صاحبه في عليّين ، ومن تواضع لله رفعه .

إن للمُلْك حظاً في النفس ورغبة في الاستعلاء ، وشعوراً بالعظمة وإحساساً بالفوقيّة على مَنْ حوله ، وإن في العبودية تواضعاً للآخرين ، وقدرة على الدخول إلى نفوسهم والتباسط معهم ، واكتساب قلوبهم وتحمل أذاهم والصفح عنهم .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((بل عبداً رسولاً ، أشبع يوماً فأشكر الله ، وأجوع يوماً فأحمَد الله ، إنما أنا عبد ، والله يحب أن يراني في مقام العبودية ، متذللاً له ، ضارعاً إليه، مقبلاً عليه ، لا أصلح للدنيا ولا تصلح لي . . .

يا الله ما أعظم هذا الرسول الكريم ! تأتيه الدنيا صاغرة ويدفعها عنه ، فقد دخل عليه عمر رضي الله عنه فرأى الحصير قد أثرَّ في جنبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيبكي عمر فيسأله المصطفى : ((ما يبكيك يا عمر ؟)) فيقول : هذا هرقل وذاك كسرى حيزت لهما الدنيا ، يتنعمان بها ، وأنت رسول الله يؤثر هذا الحصير في جنبك !!

فيقول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ منبهاً إلى حقارة الدنيا عند الله تعالى وهوانها على المؤمن : ((فوالذي نفسي بيده لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافراً شربة ماء . . يا عمر أما يرضيك أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة ؟)) .

ومات هرقل وكسرى مذمومَيْن ، ولا يُذكران إلا حين يتحدث الناس في العظات والعبر ويتعوذون من مصيرهما ، أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فيذكر في كل لحظة،

آناء الليل وأطراف النهار ، بكل حب وإجلال وتقدير ، اسمه مقرون باسم الله تعالى في الأذان وفي الإقامة ، وفي كثير من آيات القرآن (وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩)) (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا (١))٠٠. (وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ) فهل هناك أعظم وأجلُّ من هذه المكانة؟!!

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في حجه حين طلب الماء قالوا : انتظر يا رسول الله قليلاً يأتِ ماء زمزم فتشربه ـ وكان في عَرَفَةَ ـ فإن الماء هنا يخوض الناس فيه ، فقال : ((لا حاجة لي فيه . . اسقوني مما يشرب الناس)) فهو على بركته ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبعث إلى الماء الذي يشرب منه المسلمون يرجو بركتهم . . يا سبحان الله . . رسول الله يرجو بركة المسلمين . . آمنتُ أنه سيد البشر الشفيع المشفَّع في المحشر .

بل إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يجلس إلى قصعته بين الناس جاثياً على ركبتيه ويبدأ الطعام مع أصحابه، فيقول له أعرابي: ما هذه الجلسة؟ إنها لم تعجبه ولم يرضها للرسول الكريم .

فيقول عليه الصلاة والسلام: ((إن الله جعلني عبداً كريماً، ولم يجعلني جباراً عنيداً)) .

وما أقربه ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى قلوبنا وقلب عمر بن الخطاب رضي الله عنه حين استأذن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في العمرة . فأذن له ، وقال له : يا أخي عمر لا تنسني من دعائك . فيناديه باسمه ، ويتقرب إليه بلفظ يا أخي ، ويسأله أن يشركه بالدعاء ، وهو منقذ البشرية وهاديها إلى الصراط المستقيم .

ولم لا يقول ويفعل وهو مَنْ تَواضَعَ ولَطُفَ ؟ ، وهو الذي يعلِّمنا في حديثه الشريف : إن الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضعوا حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا ينبغي أحد على

أحد .

تواضع لربِّ العرش عَلّكَ تُرفَعُ

فما خاب عبدٌ للمهيمن يخضع

وداوِ بذكر الله قلبك إنه

أجل دواءٍ للقلوب وأنفع

إنّه الفاروق

استأذن الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه على رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وعنده نساء من قريش منهنَّ :

١. زوجاته رضوان الله عليهن .

٢. أرحامه من أقاربه . صلى الله عليه وسلم . .

٣. بعض نساء المسلمين من المهاجرين والأنصار يستفتينه ويسألنَه ويكثرن من الأسئلة ، وأصواتهن تعلو صوته عليه الصلاة والسلام ، ومن عادة النساء أن يتكلمن جميعاً، فتختلط أصواتهن فتحتاج إحداهن أن تعلو بنبرتها على مَنْ حولها . . فغطين بأصواتهن على صوت رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، وهو يجيبهن ويردُّ عليهن موضحاً شارحاً ..

فلما أذن له رسول الله . صلى الله عليه وسلم . قمنَ يستَتِرْن ويبتدرن الحجاب ، وخفضَ صوتُهن فما تسمع منهنَّ إلا همساً .

فدخل الفاروق عمر فرأى النبيَّ . صلى الله عليه وسلم . يضحك ! لا بد أن في الأمر شيئاً يتعلق به فقد كان رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ينظر إليه باشّاً في وجهه .

. السلامُ عليك يا رسول الله .

. ((وعليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أبا حفص)) .

. أدام الله سرورك يا رسول الله ، فأسنانك النيّرة تشع الضياء في الحاضرين وتملأ المكان بهجة وسعادة ، فهلاّ أطلعتني على السبب وشرَّفتني بالإشارة إليه .

. ((ما أعجب صنيع هؤلاء النسوة يا ابن الخطاب ، كانت أصواتهن مرتفعة ووجوههنَّ بارزة وأسئلتهن متلاحقة ، فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب ، وخفتت

أصواتهم وتراجعن إلى الوراء ، فما الذي جعلهن يهبنك ؟!)) .

ـ فأنت يا رسول الله أحقُّ أن يهبن .

ثم التفت إليهن عمر قائلاً بلهجة مؤنّبة : أيْ عدوّات أنفسهن ؛ أتهبْنني ولا تهبْنَ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ وتخفْن منّي ، ولا تخفن أن ترتفع أصواتكن على صوت رسول الله ، وتصدرْن الجلبة والضوضاء وأنتن بين يديه ؟!! .

قالت النساء: نعم نخافك يا ابن الخطاب ، فأنت فظ غليظ ، لسانك صارم قاطع ، ويدك وما تصل إليه ، أما رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فليّن الجانب ، شديد الرفق ، تأنس نفوسنا إليه ولا نخاف بَدْرَتَه . .

فافترَّ ثغر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن مثل اللؤلؤ ثم التفت إلى عمر رضي الله عنه فقال رافعاً من قدر ابن الخطّاب مبيّناً مكانته العظيمة في الإسلام : ((والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان قطُّ سالكاً فجّاً إلا وسلك فجّاً غير فجّك)) (١) [وذلك لشدة وطأته على المنافقين والكافرين] .

من وحْيِ حديث أم زرع

بعض الأزواج يدخلون البيوت ، فيسكن من فيها بعد حركة ، وتجف قلوب الزوجات والأولاد من غوائلهم . وجوههم عابسة ، أجبُنُهم مقطّبة ، تنخلع القلوب لمرآهم ، وتنقبض النفوس حين تقع العيون عليهم .

ولا أعتقد هذا إلا جهلاً منهم بدورهم في الحياة الأسريّة ، وقوامتهم فيمن ولاّهم الله عليهم.

وكأنهم لم يقرأوا سيرة الرسول الكريم في بيته وبين أهله ونسائه ، ومعاملته إياهم بلطف المعشر وبشاشة الوجه وطيب الكلام .

فقد كان صلى الله عليه وسلم يبادر فيتقرب من نسائه ، ويمازحهن ، ويتباسط معهنّ، فيدخل السرور إلى قلوبهنّ .

من هذا قوله لعائشة رضي الله عنها :

" كنت لك كأبي زرع لأم زرع "

وذلك حين حدثته السيدة عائشة رضي الله تعالى قائلة :

إنه اجتمع في الجاهلية إحدى عشرة امرأة في جلسة سمر ، فقلن بعضهُنّ لبعض :

تعالَين نتحدث عن أزواجنا ، دون أن نكتم من أخبارهم شيئاً مدحاً أو ذمّاً ، وأن نكون صادقاتٍ في وصفهم ، على ألاّ يصل هذا إليهم ...

فقالت الأولى : إن زوجي متكبر سيء الخُلُق ، لا أصل إلى رضاه إلا بشق النفس وبذل الجهد ، وشبّهته في رداءته بلحم جمل غثٍّ شديد الهزال على رأس جبل وعر لا يوصل إليه إلا بعسر ومشقّةٍ .

وقالت الثانية :لا أستطيع ذكر زوجي بسوء – وكله مساوئ – فقد يصل إليه ما قلت فيطلقني ، فأضيّع أطفالي ، وأخسر بيتي .

وقالت الثالثة : أما زوجي فهو سفيه أحمق ، عقله في لسانه ، لا يرعى لي ذمة ، ولا يحفظ لي مكانة ، أتحمله على مضض ، فلا أستطيع مجابهته فأطلّق ، وإن سكتُّ فلا يأبه لي.

وقالت الرابعة: إن زوجي معتدل الأخلاق ، متوسط في رضاه وسخطه، وشبّهتْه بليل تهامة (وتهامة مكةُ وجنوبُها ، والنسبة إليها تهاميّ) لا تجد فيه حراً ولا برداً ، ولا تخافه ولا تسأمه .

وقالت الخامسة : زوجي كريم جواد ، لا يسألني ما أفعله في البيت ، فإذا خرج فهو أسد في الحروب ، بطل في القتال .

وقالت السادسة : أما زوجي فإن أكل أو شرب لم يترك لعياله شيئاً ، فإذا نام لم يشعر بما حوله . أنانيٌّ لا يهتم بحال أهله إن مرضن أو اشتكين . شديد الرغبة في النساء .

وقالت السابعة : يا ويلي ، إن زوجي عييٌّ لا يحسن تدبير الأمور ، فيه غيٌّ وضلالة ، أحمق لا يهتدي للتصرف الصحيح ، يتخبط في أعماله ، سريع إلى الضرب ، فإما أن يشُجّ من خاصمه ، أو يكسر له ضلعاً من أضلاعه ، أو يجمع بين الشج والكسر ، فأنا منه على أسوإ حال .

وقالت الثامنة : أما زوجي فناعم الملمس ، كالأرنب لِيناً وعطفاً ، شديد الاعتناء بمظهره وطيب رائحته .

وقالت التاسعة : زوجي أصيل المنبِت ، فارع الجسم ، كريم اليد ، سريع إلى إغاثة الملهوف ، عظيم في قومه ، قريب إلى نفوسهم ، له الصدر في مجالسهم .

وقالت العاشرة : إن زوجي – مالكاً– له إبلٌ كثيرة باركة في فِناء منزله ، لا يوجّهها للكلإ والمرعى إلا قليلاً ، فهو لم يقْتَنِها لينمّيَها ، إنما جعلها للضيفان ، فيقريهم من ألبانها ولحومها . وقد عهِدتِ الإبل منه ذلك ، فإذا سمعن صوت المزاهر وآلات الطرب علمْنَ أنّ أجلَهنّ قد اقترب .

وقالت الحادية عشرة : أما زوجي أبو زرع – وما أدراك ما أبو زرع ؟– فقد انتزعني من بيت فقير وحياة بائسة إلى غنىً واسع وحياة رغيدة ، وأكرمني أيّما إكرام ، طعام كثير ، وخير وفير .. وذهبٌ ملأ يديّ ، ففرحت بما أُلْتُ إليه من نعمة ، وعظّمني فعَظُمَتْ نفسي عندي ، فقولي عنده القول الفصل ، والخدم من حولي يأتمرون بأمري ، ويسعَوْن إلى رضاي ... أم أبي زرع : تمتلك الكثير من المال ، وبيتها واسع رائع .... ابن أبي زرع : نشيط جميل المنظر ... بنت أبي زرع : من أجمل الفتيات ، ذات خلق رفيع ، تغار منها الأتراب ...حتى الخادمة : فإنها أمينة تكتم السر وتحافظ على البيت ، وتعتني به .

إلا أن هذه النعمة لم تدُمْ لي .. فقد خرج زوجي في بعض أعماله فرأى امرأة جميلة في مقتبل العمر ، تلاعب ولدين لها ، وتسقيهما من ثدييها لبن الأمومة اللذيذ ، فأعجَبَتْه ، فطلّق أم زرع ، وتزوّجها .

ولم تلبث ام زرع أن تزوّجت رجلاً أصيلاً غنيّاً ذا همّة عالية ، فأغدق عليها خيراً كثيراً، وأمرها بصلة أهلها وإكرامهم . . إلا أن قلبها لم يكن له ، بل كان لأبي زرع ... ألم يقل الشاعر :

نقّل فؤادَك حيث شئت من الهوى ما الحبّ إلا للحبيب الأوّل
كم منزلٍ في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبداً لأوّل منزل ؟

فكانت تقول : فلو جمعْتُ كل شيء أعطانيه ما بلغ أصغرَ ما أعطانيه أبو زرع .

فلما قال لها النبي الكريم صلوات الله تعالى وسلامه عليه :

"كنت لك كأبي زرع لأم زرع " .. قالت :

يا رسول الله ، بل أنت خير من أبي زرع .

قال صلى الله عليه وسلم :" نعم ، فقد طلّقها ، وإنّي لا أطلقك ."

وتسارع بنت الصدّيق بكلام حلو ورقيق
بل أين أبو زرع أينا من زوج بر ورفيق؟
أرسول الله يشابهه الـ أغيار بخلق موثوق ؟
قد صاغك ربي من نور وحباك بكل التوفيق
أنت العلياء وذروتها وسواك بوهد التضييق

بلال يؤذن

بلال ! وما أدراك من بلال؟....

عبد أميّة بن خلف وساعده الأيمن في تجارته إلى الشام واليمن، اعتمد عليه وآثره على سواه من العبيد لأمانته وإخلاصه..

سمع بلال كلمة الحقّ من فيّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، فانسابت إلى قلبه وعقله دفاقة نيّرة وأعلن لسانه شهادة التوحيد ودخل في سلك الموحدين...

عرف سيده ذلك منه فأمره أن يعود إلى الكفر ودين الشرك والضلال، وهو يظن أنه حين ملك جسده ملك عقله ولبّه – فلم يستجب بلال– وهل يعود مَن ذاق حلاوة الإيمان وسموّ التوحيد إلى وهدة الوحل ودرك البهيميّة، أوعَدَهُ سيدُه، ثم عذبَه، فلما رأى منه الإصرار والثبات اجتهد في تعذيبه، وافتنّ فيه الأفانين، السياط اللاسعة والرمضاء الحارة، والصخور الثقيلة، فازداد بلال تمسكاً بدينه وجلجل صوته في أرجاء مكة أحَدٌ أحَدٌ، فرد صمد، واشتراه الصديق رضي الله عنه وأعتقه لله عزّ وجلّ.

فكان عمر الفاروق يقول: سيدنا أعتقَ سيدَنا. وكان لبلال رضي الله عنه صحبة رسول الله – صلى الله عليه وسلم– وكان مؤذنه في مسجده وحلّه وسفره ...

وحين فتح القائد العظيم – صلى الله عليه وسلم– مكة وطهّرها من الأوثان أمر بلالاً أن يرتفع إلى ظهر الكعبة يعلن كلمة التوحيد، فصدح بالأذان، الله أكبر، الله أكبر.... ومادت أرجاء مكة منتشية بهذا النداء الخالد.. يا الله ما أعذب هذا النداء وأطيبه.

كان بين الجلوس ثلاثة من عتاولة مكة، الذين جمعهم رسول الله– صلى الله عليه وسلم– في فناء الكعبة فأظهروا الإيمان لينجوا من الموت وظلت قلوبهم على ما كانوا عليه

من رجس الشرك وظلامه.

قال أولهم عتّاب بن أسيد حين سمع النداء:

لقد أكرم الله أسيداً (والده) ألا يكون سمع هذا، فيسمع منه ما يغيظه، (ولم يدر أن أباه الكافر هذا في نار جهنم يتلظّى، ويودّ من أعماق قلبه لو عاد إلى الدنيا مسلماً تائباً ، وليس بعائد).

إن كلمة التوحيد لا تغيظ مَن في قلبه مثقال ذرة من فهم، وعقلِه قَدرُ أنملة من تفكير.

وقال ثانيهم الحارث بن هشام وكان أعقل من صاحبه - إن صح أن فيه عقلا- : أما والله لو أعلم أنّه محق لاتبعتُه!.. ولا أدري متى ينتبه الغارقون في سكراتهم إلى الحق الصراح، وشمسه الساطعة، لولا أن على قلوبهم غشاوة، وفي سويدائهم ... سواد....

وقال ثالثهم أبو سفيان بن حرب وكان أقربهم إلى التفكر والتمحيص: لا أقول شيئاً، لو تكلمتُ لأخبَرَتْ عني هذه الحصا !! إذ هو يعلم أن محمداً- صلى الله عليه وسلم- نبيّ! لكنّ الكبرُ أن يكون تابعاً منعه الإسراع إلى صفاء الإيمان بل إن أبا سفيان هذا رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم- يمشي والناس وراءه فقال يحدّث نفسه: ما أدري بم يغلبنا محمد؟ فأتاه النبي - صلى الله عليه وسلم- ، فضرب في صدره وقال: (بالله نغلبك) ... يا الله من الذي أخبره بخبايا نفسي ؟!

إنّ أبا سفيان هذا يخبرنا عن حادثة مشابهة له فيقول:

لما رأيت رسول الله - صلى الله عليه وسلم- في مكانته العظيمة، والناس يوقرونه، قلت في نفسي: لو عاودتُ هذا الرجل القتال، وجمعتُ له جمعاً !... فجاءه الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- حتى ضرب في صدر أبي سفيان، يجيبه .. (إذاً نخزيك) .

مَن أخبر محمداً بخبيئة الرجل؟!! إنه الله تعالى، فقال أبو سفيان: أتوب إلى الله، وأستغفر الله، ما أيقنت أنك نبي إلا الساعة، إني كنت لأحدث نفسي بذلك .

الشيماء أخت الرسول

نصر الله تعالى نبيه في غزوة حنين بعد ما كاد المسلمون يهزمون!.. وكيف يهزمون وفيهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بطل الأبطال وسيد الشجعان؟!!.

فقد نصب المشركون كميناً لهم ففاجأوهم فولّوا الأدبار إلا رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، ثبت على بغلته ومعه العباس وعدد من المسلمين، فأمر عمّه أن ينادي: يا معشر الأنصار يا معشر المهاجرين:

أنا النبيّ لا كذب　　　أنا ابن عبد المطلب

وسمع المسلمون الصوت الجهير الذي عرف به العباس رضي الله عنه، فاجتمعوا إليه، وكان النصر حليفهم، وانقلب السحر على الساحر، وقتل من مشركي هوازن رجالٌ كثير، وهرب الباقون لا يلوون على شيء. تركوا نساءهم وأطفالهم، وأنعامهم، فالأرواح أغلى من كل شيء ، فوقع كل هذا في أيدي المسلمين، وساقوه إلى النبي – صلى الله عليه وسلم– .

وكان في السبايا الشيماء بنت الحارث أخت رسول الله – صلى الله عليه وسلم– من الرضاعة – فقد استرضع في بني سعد بن بكر– فعنّفوا عليها في السياق ودفعوها كغيرها من النساء والأطفال، فقالت للمسلمين: تعلمون – والله– إني لأخت صاحبكم من الرضاعة! فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ، فلما رأته قالت واندفعت إليه: يا رسول الله إني أختك من الرضاعة، فهدّأ من روعها، وأجلسها أمامه وسألها يستوثق حقيقة دعواها: (ما اسمك؟) قالت الشيماء.

قال: (فما علامة ذلك؟).

قالت: عضة عضضتنيها في ظهري حين كنت أحملك على وِركي — وكشفت فأرته

أثرها في ظهرها فبسط رسول الله

- صلى الله عليه وسلم- رداءه لها، وأجلسها عليه، وباسطها الحديث حتى سرّي عنها، وقال لها :

(يا أختاه إن أحببت أن تعيشي في بيتي معزّزة مكرّمة فلك ذلك، وعلى الرحب والسعة، وإن أحببت أن أعطيك من المال والنّعم ما يرضيك وترجعي إلى قومك فعلت) .

قالت: بل أرجع إلى قومي يا رسول الله ، وتمتعني بما أفاء الله عليك .

فمتّعها رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وردّها إلى قومها ثم قسم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- الفيء والسبي بين المسلمين، وكان خيراً كثيراً من الإبل والشاء ما لا يُدرى عدّته وستة آلاف من الذراري والنساء.

ثم أتاه - صلى الله عليه وسلم- وفد هوازن وقد أسلموا معلنين توبتهم إلى الله تعالى مستغفرين ما بدر منهم، فقال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : (إن الإسلام يجبّ ما قبله، وإن الله تعالى يفرح بالعبد التائب الثائب إلى رشده الداخل في حظيرة الإيمان فرحاً يليق به وبكرمه سبحانه) .

ونظر بعضهم إلى بعض، كأنهم يريدون أن يبدأوا حديثاً يمنعهم منه الحياء، وتدفعهم إليه الحاجة، فتقدّم رجل من سعد بن بكر قوم حليمة السعدية أم الشيماء، يقال له زهير، ويكنى أبا صُرَد، فقال:

يا رسول الله إنما في الحظائر التي وضع فيها السبي عماتك وخالاتك، وحواضنك اللاتي كنّ يكفلنك، يزعم بذلك أنه يريد تحريك مشاعر الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم- ، والرسول - صلى الله عليه وسلم- أشدّ الناس شفقة، وأكثرهم بهم رحمة، وأحناهم عليهم، وأرحمهم بهم .

ثم أردف قائلاً: يا رسول الله ، لو أننا أرضعنا للحارث بن أبي شُمّر، أو للنعمان بن المنذر، ثم نزل منا بمثل الذي نزلت به رجونا عطفه وفضله علينا، وأنت يا رسول الله خير المكفولين .

فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– :

لقد وُزّع السبي والمال على المحاربين، ولن آلوَ في مساعدتكم. وأخيّركم بين أبنائكم ونسائكم أو أموالكم، فانظروا أحبّ الأمرين إليكم أعطكموه.

قالوا: يا رسول الله ، خيّرتنا بين أموالنا وأحسابنا، بل تردّ إلينا نساءنا وأبناءنا، فهو أحبّ إلينا.

فقال لهم النبي – صلى الله عليه وسلم– : أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقوموا فقولوا: إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين، وبالمسلمين إلى رسول الله في أبنائنا ونسائنا، فسأعطيكم عند ذلك ما وعدتكم به، وأسأل لكم المسلمين أن يردّوا عليكم ما طلبتم ...

لم يكن – صلى الله عليه وسلم– ليأخذ حق المسلمين عنوةً أو ليفرض عليهم ما لا يريدون، وهل ينزع عن الناس حقوقهم إلا الظالم المستبدّ ؟! وحاشاه – صلى الله عليه وسلم– أن يكون كذلك، لكنّ هوازن وقبائلها جاءوا مسلمين، وحُقّ للمسلم أن ترتاح نفسه ليكون جندياً صالحاً، وفرداً نافعاً في المجتمع الإسلامي المتكافل المتراحم، وهذا ما يسعى إليه – صلى الله عليه وسلم– .

فلما صلّى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– بالناس الظهر قاموا فتكلموا بالذي أمرهم به، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أمام الجمع الغفير: أما ما كان لي ولبني عبد المطلب فهو لكم .

– وقال المهاجرون رضي الله عنهم وأرضاهم، وهم الذين تركوا أموالهم ودورهم وهاجروا إلى الله ورسوله : وما كان لنا فهو إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– .

– وقال الأنصار رضي الله عنهم وأرضاهم وهم الكرام البررة الذي آوَوا رسول الله ، وبذلوا للإسلام دماءهم وأرواحهم وكانوا مثلاً عظيماً في الإيثار: وما كان لنا فهو لرسول الله – صلى الله عليه وسلم– .

أما القبائل الأخرى فقد تمسكت بنصيبها من السبايا فلم تفرّط فيه إلا بني سُليم . فما كان من رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلا أن قال:

(يا من تمسكتم بحقكم فإني قد وعدت إخوانكم بردّ أبنائهم ونسائهم، فرُدّوا ما عندكم لهم ولكم عليّ بكل إنسان تردّونه ستّ من الإبل، مِن أوّل سبي أصيبه، ولا أراني إلا منصفاً، ومؤدياً ما وعدتكم به، إن شاء الله.

قالوا: صدقت يا رسول الله .

وردّ الناس إلى سعد بن بكر وإخوانهم من هوازن نساءهم وأبناءهم .

يــا رســول الله إنّــي ... مــادحٌ عليــاك فنّــي
علّنــي أحــظى بشــفع ... يمنــح البســمة سنّــي
أنــت نــورٌ في فــؤادي ... يمســح الأحــزان عنــي
أنــت نبــراس سنــاء ... يوقــد الفكــر بذهنــي
صاغــك المولــى مثــالاً ... طاهــر الأنـفاس يبنــي
أمــةً تحيــا بشــرع الـ ... ـلّه ، لا ظلــم التجنّــي

*****

يــا رســول الله ليــس الـ ... ـحــبّ في قلبــي تمــنّ

ليــس شعــراً ينثــر الآ   هــات في شــدو ولـحن
إنــما حُبــي امتثـــال   للهــدى، بالحـقّ يُغنـي
إنــما حبــي اقـــتداء   يرتضيـــه الله منّـــي

*****

أســـأل الله رضـــاءً   مــن رســول الله يدني
لا تـــعاملني بنقصـــي   يـــا إلهــي، بل بمــنّ
حسـْـنُ ظنـي فيـك ربـي   لا تــخيّبْ حســن ظنّـي( )

فَضالة بن عمير الليثيّ

دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم- مكة عام الفتح يقود جيش الإيمان، فاستقبله البيت الحرام وأهله استقبالاً رائعاً دلّ على أن دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها هو الذي ترضاه العقول السليمة.

دخل رسول الله – صلى الله عليه وسلم- على ناقته القصواء حانياً ظهره، ساجداً لله عزّ وجلّ، شاكراً له فضله، متواضعاُ لعظمته وطاف حول الكعبة وهدم الأصنام كلها، وكبّها على وجوهها، فعاد الدين كما كان ديناً قيماً ملّة إبراهيم حنيفاً .

وجاء الناس أفواجاً يعلنون الدخول في هذا الدين العظيم، ونبذ الشرك والتبرؤ منه، وعفا رسول الله – صلى الله عليه وسلم- عمّن آذوه، وكادوا له، وأذاقوه العذاب ألواناً، فقال لهم قولته المشهورة: اذهبوا فأنتم الطلقاء العتقاء .

وكان فضالة منهم أعلن لسانه الإسلام، وأضمر قلبه العداء للدين ورسوله، وبحث عن فرصة سانحة يدنو فيها من الرسول الكريم فيقتله ، فلم يجد خيراً من طواف رسول الله – صلى الله عليه وسلم- بالكعبة، فدنا منه حذراً متأهّباً، نوى الغدر، وكانت عيناه وحركاته تنبئ عن ذلك، لكنّ الله تعالى عاصمٌ رسولَه،(وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ) وحافظٌ دينه ، أخبره بما نواه فضالة هذا وما بيّتَ له، فهل غضب رسول الله – صلى الله عليه وسلم- من الرجل وأمر أتباعه أن يقتادوه إلى زنزانة تحت الأرض مظلمة، تفوح منها رائحة التعذيب والإرهاب، يقف عليها الزبانية المجرمون ؟!

هل أمر بقتله فوراً، فأطلق حراسُه عليه سهامهم وحرابهم، وقطّعوه بسيوفهم إرباً إرباً؟!

ماذا فعل رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ؟

وكيف تصرّف وهو ينظر إلى هذا الرجل الذي يدنو منه رويداً رويداً، يتربص به فرصة سانحة، لينقضّ عليه بخنجره المسموم وطعنته القاتلة ؟

لما دنا منه فاجأه الرسول – صلى الله عليه وسلم– قائلاً :

أفضالة ؟

فأجاب بسرعة دلّت على ارتباكه : نعم، فضالة يا رسول الله... ذكر كلمة يا رسول الله موحياً بإيمانه بالله ورسوله، ساتراً ما نابه من خوف كاد يكشف أمره، فينال عقابه.

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم– : (ماذا كنت تحدث به نفسك ؟).

ازدادت نبضات قلبه إذ فوجئ بسؤال يكشف سرّه، ويعرّي نيّته الأثيمة، فقال موارياً: لا شيء .. ثم تذكر أن هذا مقام ذكر ودعاء وعبادة، هكذا يقول محمد، فاستدرك قائلاً: كنت أذكر الله...!! فضحك النبي – صلى الله عليه وسلم– من حسن تخلص فضالة من هذا الموقف الصعب، وقال له : (استغفر الله..).

لماذا قال لي استغفر الله يا فضالة، فهو إذن يعرف سبب وجودي هنا.. يا ويلي، كنت القاتل فصرت المقتول.. إن محمداً لا بدّ مقتصّ مني، لقد وقعتُ وَضِعتُ ولما أنفِّذ ما قررته...

لكنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم–، الرحيم بالمؤمنين، العزيز عليه ما يعنتهم، الراغب بإيمان الناس جميعاً، حريصٌ على أن يدخلوا الجنة، وينجوا من النار جميعاً... مدّ يده الكريمة إلى صدر فضالة ودعا.

ماذا قال يا رب حتى سكن قلبي وهدأ روعي؟! إن لِيَدِهِ الشريفة على صدري برداً وسلاماً، ولذة ما تعدلها لذة، إنني أنظر إلى وجهه الشريف الوضاء فأراه يرقبني بمحبة وودّ

فأغضّ بصري هيبة وإجلالاً.

أين كراهيته في قلبي؟! لقد انقلبت حباً وشوقاً، حبّاً شديداً له، وشوقاً إلى استمرار لقائه.

أيها المسلمون، يا إخواني ويا أحبائي، والله ما رفع رسول الله – صلى الله عليه وسلم– يده عن صدري حتى ما مِن خلق الله شيء أحبّ إليّ منه.

سبحان الله وبحمده، سبحان الله العظيم، ما هذه القوة الإيمانية الدفاقة التي أشعر بها الآن؟ إنني الآن أسعد الناس فقد هداني الله للإيمان وأذهبَ عني ظلام الشرك والكفر، وتألق نورُ الحق في وجهي، فاطمأن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى أنني الآن إنسان غيرُ الذي كنت، فدعا لي وعاد إلى طوافه، وتبعته أسأل الله العفو والمغفرة وأصلّي على رسوله العظيم ذي القلب الرحيم.

قال فضالة: فرجعت إلى أهلي فمررت بامرأة كنت أتحدّث إليها في جاهليتي وأجلس إليها الساعات الطوال فأغرفَ عندها من مستنقع الإثم ورجس الشهوة المحرّمة والضلالة، فنادتني كعادتها: أنْ هلم إليّ يا فضالة، هلمّ إلى من تحبك وتحبّها، وتأنس إليها وتأنس إليك،... إني أنتظرك على أحرّ من الجمر...

إن الشيطان يدعوني على لسانها، ويسعى إلى طمس النور في قلبي وإعادتي إلى الغواية والفساد...فأجبتها بكل ما في النفس من طهارة ونقاء: لا...لا أنا غيرُ الذي كنت تعرفين، أنا فضالة المسلمُ ، فضالة المؤمنُ ، وابتعدت عنها قائلاً:

قالت هلمّ إلى الحديث فقلت لا	يأبى عليكِ الله والإسلام
لو ما رأيت محمداً وقبيله	بالفتح يوم تكسّر الأصنام
لرأيت دين الله أضحى بيّناً	والشرك يغشى وجهه الإظلام

بما أنّ يوم القيامة آتٍ لا ريب فيه، فتعال معي لنحضر عرض أحد المؤمنين على ربّ العزّة، وقد تكون أنت الذي نتابع عَرضه، وقد أكون أنا – والحقيقة أننا جميعاً سنقف هذا الموقف– فهل أعددنا له ما يُنجي ؟...

يدني الله سبحانه عبده المؤمن منه على الرغم من أنه ذو ذنوب كثيرة وأخطاء جسيمة، ولكنّه الربّ الكريم، الربّ الرحيم ...يدنيه منه فيستره برحمته عن أعين المخلوقات وسمعهم، على العكس مما بفعل مع الكافر، إذ يبعده ويفضحه، أتدري لماذا يا أخي ؟

أتعرف سبب هذا الستر والإخفاء ؟!! لأن الله سبحانه وتعالى غنيّ عن عذاب عباده الذين شهدوا له بالوحدانية، واتقوا الله ما استطاعوا، وحاولوا جهدهم الإخلاص له ، ولكنّ الإنسان خطّاء، خُلق ناقصاً، ومن شيمة الناقص التكاسل والغفلة، والزلّة والنسيان (وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا) فنحن ضعفاء، لا قوة لنا إلا بالرجوع إلى الله تعالى، والاتكال عليه، والاعتماد عليه.. فنرفع أيدينا إلى السماء ونجأر بالدعاء إليه جلّ شأنه فيمسح على قلوبنا بيد الرحمة، ويعفو عنا، ويتجاوز عن سيئاتنا، وهكذا نحن دائماً، وهكذا هو سبحانه دائماً.

يدنيه منه سبحانه ويستره ويقرّره بذنوبه، فيقول: أتعرف ذنب كذا؟ فيقول: يا رب، نعم وأعترف به، وأقرّ بارتكابي إياه.

فيقول سبحانه: يا عبدي، فإني قد سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم، فيُعطى صحيفة حسناته، ويسعد سعادة لا شقاء بعدها ....

ويأتي رجلٌ آخر فيقف أمام الحق سبحانه خائفاً وجلاً فكبائر ذنوبه كثيرة، وهو مؤمن يعلم أن الله تعالى لا يخفى عليه شيء فيهاب أن يسأله عنها، ويحاسبه عليها .

فيأمر الله تعالى بعرض سيئاته الصغيرة، ويقرره بها، فيُقرّ بفعلها ويسأل الله تعالى المغفرة ، فيقول سبحانه له: قد غفرتها لك وجعلت مكان كل سيئة حسنة، فيقول: يا رب قد عملت كذا وكذا، ويقصد السيئات الكبيرة آملاً أن يحوز مكانها حسنات كبيرة تناسبها، فيضحك الله سبحانه من طمع الإنسان ، ويحقق أمله بالعفو والمغفرة .

سبحانك يا رب، أنت إله تُعبد، ربّ حقيقٌ أن يحبّك من يعرفك، رحيم رحيم .... غفرانك .

وهذا النبي الكريم الرحيم أرسلته إلى عبادك لتنقذهم به – صلى الله عليه وسلم– من الظلمات إلى النور، ومن النار إلى الجنة، يقرأ قولك الكريم في سورة إبراهيم عليه السلام: (رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ) (٣٦) ، ويقرأ قول عيسى عليه السلام في سورة المائدة : (إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) (١١٨) فتغرورق عيناه بالدموع، ويرفع يديه الشريفتين إليك يا رب يناديك :

أمتي أمتي، ويبكي وتسيل دموعه الطاهرة رقراقة حارّة تحفر في وجهه المضيء أخدود الأمل والرجاء، فترسل إليه جبريل عليه السلام يسأله: ما يبكيه، وأنت أعلم بما يبكيه... فيخبره بعظيم أمله في الله سبحانه أن يغفر لأمته، ويعفو عنها، ويبعدها عن النار، ويدخلها الجنة وفراديسها، صلى الله عليه وعلى آله من برّ رحيم، عطوفٍ كريم ، ويرفع الأمين جبريل ما قاله الرسول الرحيم إلى الملك الجليل سبحانه وهو أعلم بما قاله رسوله الكريم .

وتقول يا رب سبحانك، جل شأنك، وعظُم سلطانك، تقول لجبريل: اذهب إلى محمد فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوؤك .

ونقف أمام رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فنراه يبشرنا أجمل بشرى، يقول –

صلى الله عليه وسلم- :

إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول: هذا فكاكك من النار.

فالله تعالى قدّر للنار عدداً يملؤها فإذا دخلها الكفار بذنوبهم وكفرهم، صاروا في معنى الفكاك للمسلمين .

ولكل إنسان منزل في الجنة، ومنزل في النار، فالمؤمن لوحدانيته لله تعالى يدخل الجنة، ويخلفه الكافر في النار، نعوذ بالله من الناروما قرّب إليها من قول أو عمل ...

يـا ربّ سبـــحانك　　　أنـــت الإلـــه الحـق
للمســـلم المذنـــب　　　قـــولٌ لذاتـــك رق

***

مـــن فضـــلك النـــار　　　ولّـــت، فــــلا دار
إلا رُبـــا الجـــنه　　　فَلِوَجـــهك المــنّه

***

أرســـلت هادينــا　　　يُـــهدي لنـــا دينــا
نـــورٌعلـــى نـــور　　　بالخـــير منشـــور

***

فـــارفعه مـــقدارا　　　أعـــلى الـــورى دارا
صلـــى عليـــه الله　　　مـــن فضـــله أولاه

عدي بن حاتم

كان –كما يقول عن نفسه– أشدّ الناس كراهية لرسول الله – صلى الله عليه وسلم، ولم يكن بوسعنا – آل طيء– أن نحارب أحداً، فخشيت أن أقع بيد المسلمين إن جاءوا إلينا داعين إلى دينهم مقاتلين من يقف في طريقهم .

وكنت رئيس قومي، شريفاً فيهم، أدين بالنصرانيّة، فقلت لغلامي: ويحك أعدد لي عدداً من الجمال ذللاً سماناً فاحبسها قريباً مني، فإذا سمعت بجيش لمحمد فآذنيّ.

ثم إنّه أتاني ذات غداة فقال: " يا عديّ أما زلت راغباً عن دين محمد وجيشه ؟ قلت: بلى، قال: فإني رأيت رايات، فسألت عنها، فقالوا: هذه جيوش محمد قد دنت، فإن رأيت أن تصنع الآن ما تريده فافعل، قلت: فقرّب إليّ أجمالي، فقربها، فاحتملت بأهلي وولدي وقلت: ألحقُ بأهل ديني من النصارى فهم أقرب إلى نفسي، ودنوت من الشام مخلّفاً أختي سفّانة بنت حاتم وأهلها.

فلما قدمت الشام أقمت بها، وتجيء خيل المسلمين فتصيب أختي فيمن أصابت. فلما عُرِضَتْ على رسول الله – صلى الله عليه وسلم– فيمن عُرض من السبايا – وكان (صلى الله عليه وسلم) قد عرف هربي إلى الشام– قالت: يا رسول الله ، غاب الوافد وانقطع الوالد، وأنا عجوز كبيرة، لا أستطيع أن أخدم أحداً، فمُنّ عليّ، مَنّ الله عليك .

قال – صلى الله عليه وسلم– : " من وافدك ؟ " قالت: عديّ بن حاتم .

قال: " الذي فرّ من رسول الله ، وكان أولى به أن يلحق بركب الإيمان، وقد عُرف عنه وفرةُ عقله ؟

قالت: هو ذاك يا رسول الله ، فمُنّ عليّ .

قال- صلى الله عليه وسلم- : إنّها ابنة كريم كان يَقري الضيف، ويُعين على نوائب الحق، والكريم يُكرَم في نفسه وأهله.

صلى الله عليك يا رسول الله إنه لا يعرف أصحابَ الفضل إلا أولو الفضل، ولا الكرامَ إلا الكريم، صدقتَ إذ قلتَ : " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" وأنت يا سيدي تضرب المثل الأعلى دائماً في حسن الأخلاق وسموّها .

قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : " إنّه – صلى الله عليه وسلم- يا ابنة حاتم مُطلقك ومعتقك فاسأليه ما يحملك إلى أهلك وأخيك .

فسألته، فأعطاها ما يحملها وأكرمَها ثم أرسلها .

قال عديّ: وكرهتُ ما فعلتُ أشدّ الكره، فقلت: لو أتيتُ هذا الرجل -محمداً صلى الله عليه وسلم- فإن كان كاذباً لم يخفَ عليّ كَذِبُه ، وإن كان صادقاً اتّبعته، فأتتني أختي فقالت:

قد فعل محمد من الجود والعرفان ما لم يفعله أبوك حاتم، إيتِهِ راغباً أو راهباً، فهو أهلٌ لكل خير ومكرمة، فقد أتاه كثير من الناس فأصابوا منه الفضل والكرامة، فلتكن واحداً منهم، قلتُ: هذا ما حدثتني به نفسي و إني لقاصده .

فلما أقبلت إلى المدينة المشرفة استشرفني الناس وقالوا: عديّ بن حاتم ، عديّ بن حاتم ، فأتيته وهو جالس في المسجد فلما وصلت إليه أخذ بيدي ، وكان – صلى الله عليه وسلم- قبل ذلك قال: " إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي " ثم أخذني إلى داره – صلى الله عليه وسلم – ،فألقت إليه خادمتُه وسادة جلس عليها، وجلست بين يديه على وسادة دفعها إليّ ، ثم قال: " يا عديُّ بن حاتم أسلمْ تسلمْ " .

قلت: إن لي ديناً .

قال: " أنا أعلم بدينك منك " .

قلت: أنت أعلم بديني منّي ؟

قال: " نعم ، نعم ألست ترأس قومك ؟ " .

قلت: بلى .

قال: " ألست ركوسياً نصرانياً ؟ " .

قلت: بلى .

قال: " ألست تأكل المرباع (ربع الغنيمة) ؟ " .

قلت: بلى .

قال: " فإن ذلك لا يحل في دينك " .

قال عدي: فحرّكتُ لساني في فمي متلجلجاً لا أحِيرُ جواباً .

قال: " يا عديّ أسلم تسلم ... إنه ما يمنعك أن تسلم إلا غضاضة تراها من حولي، وإنك ترى الناس إلباً واحداً علينا .

ثم أمعن الرسول – صلى الله عليه وسلم – في النظر إلى وجه عدي ثم قال:

" هل أتيتَ الحِيرة ؟ (وهي عاصمة العراق قديماً) " .

قال عدي: لم آتها، وقد علمت مكانها.

قال – صلى الله عليه وسلم– : " يوشك الظعينةُ (المرأة في هودجها) أن ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد " .

قال عدي في نفسه: فأين لصوص طيء ؟!

قال – صلى الله عليه وسلم– : " ولتُفتَحنّ علينا كنوزُ كسرى بن هرمز " .

قال عديّ متعجباً: كنوز كسرى بن هرمز ؟!!

قال – صلى الله عليه وسلم– مؤكداً: "كسرى بن هرمز، كسرى بن هرمز " .

ثم أردف النبي – صلى الله عليه وسلم– قائلاً: " وليفيضنّ المال حتى لا يقبله أحد ".

قال عديّ: فقد والله رأيت اثنتين: الظعينة ترتحل بغير جوار حتى تطوف بالكعبة، وقد كنت في أوّل خيلٍ أغارت على كنوز كسرى بن هرمز .. وأحلف بالله لتجيئنّ الثالثة ، فلقد صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم– في اثنتين وليصدقنّ في الثالثة .

لقد أسلم عدي وحسن إسلامه وثبت على دينه مع قومه حين ارتدّ كثير من الناس عن الإسلام، وحارب المرتدين مع الصديق أبي بكر، وكان جواداً شريفاً في قومه .

أحبّه رسولُ الله – صلى الله عليه وسلم– ، وأحب عديّ رسولَ الله – صلى الله عليه وسلم– ومَن أحبَّ رسولَ الله اقتدى به ، وانتفع بسيرته ، وسار على طريقته ، فكان من الخالدين .

خُبثُ المنافقين

روى الحِب ابن الحِبّ أسامة بن زيد رضي الله عنهما أنه كان ولداً لم يبلغ الحلم حين ركب رسول الله – صلى الله عليه وسلم– حماره، وأردف أسامة وراءه قاصداً سعد بن عبادة رضي الله عنه سيّد الخزرج وذلك قبل غزوة بدر الكبرى بفترة وجيزة – يعوده من مرض ألمّ به– ، ومرّا بمجلس فيه عبدالله بن أبيّ بن سلول وذلك قبل أن يظهر الإسلام .. فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين واليهود والمشركين عبدة الأوثان، وفي المسلمين عبدالله بن رواحة رضي الله عنه الشاعر الذي نافح عن الإسلام والمسلمين بشعره ، وكان بعد ذلك من قادة مؤتة الذين استشهدوا قبل أن يستلم الراية خالد بن الوليد رضي الله عنه.

فلما مرّت بهم الدابّة غشيت مجلسَهم عجاجَتُها (أي الغبار الذي تثيره الدابة وهي منطلقة).. فخمّر ابن أبيّ أنفه بردائه، وقال: لا تُغبّروا علينا، فاغتنمها رسول الله – صلى الله عليه وسلم– ، وسلّمَ عليهم ، ووقف عندهم ، فدعاهم إلى الله تعالى، وقرأ عليهم القرآن الكريم .

فقال عبدالله بن أبيّ : أيها الرجل؛ لا أحسَنُ مما تقول، إن كان كلامُك حقاً !!.. ولا نرغبُ أن تأتي فتكلمنا في مجالسنا به، ولك الحريّة الكاملة أن تحدّث من يأتيك ، ونحن الآن لا نرغب بهذا ... أسلوب خبيث نسميه بلغة العصر (ديبلوماسي).

قال عبدالله بن رواحة رضي الله عنه: بلى يا رسول الله فاغشَنا في مجالسنا، وادعنا إلى الله ، وعظنا ، فإنا نحب ذلك. فاستبّ المشركون واليهود من جهة والمسلمون من جهة أخرى ، وعلت أصواتهم، وكادوا يثورون متحاربين لولا أنّ رسول الله – صلى الله عليه وسلم– اجتهد في تهدئتهم وإصلاح ما بينهم حتى سكنوا، ثم ركب – صلى الله عليه وسلم

– دابته، وسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: أيْ سعد ألم تسمع ما قاله أبو حباب ؟ يريد ابن أبيّ، فإنّه قال كذا و كذا .....

فقال سعد: أيْ رسول الله ، بأبي أنت، اعفُ عنه، واصفح، فوالله الذي أنزل عليك الكتاب، لقد جئتَ إلينا، وأهل المدينة من الأوس والخزرج قد اتفقوا على تتويجه ملكاً عليهم، وكاد الأمر يكون، فردّ الله ذلك بالحق الذي أعطاكه من النبوّة والرسالة، فغصّت نفسه، وعدّك سلبته ملكه، فكان منه ما كان. فعفا عنه رسول الله – صلى الله عليه وسلم– .

وكان الرسول الكريم، وأصحابه يعفون – أول أمرهم– عن المشركين وأهل الكتاب، ويصبرون على الأذى امتثالاً لقوله تعالى في سورة آل عمران الآية ١٨٦ :

(لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُواْ أَذًى كَثِيراً وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ) .

وقال تعالى في سورة البقرة الآية ١٠٩ :

(وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّاراً حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُواْ وَاصْفَحُواْ حَتَّى يَأْتِيَ اللّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ).

حتى أذن الله تعالى لرسوله في القتال في سورة الحج الآية ٣٩ : (أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ) .

فلما نصر الله سبحانه رسوله والمؤمنين في غزوة بدر نصراً مؤزّراً، فقال تعالى في سورة آل عمران الآية ١٢٣:

(وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) وقتل الله بها من قتل

من صناديد الكفار، وسادة قريش، وقفل رسول الله - صلى الله عليه وسلم- وأصحابه غانمين، أعزّاء، معهم أسارى الكفار أذلاء مقهورين. قال ابن أبيّ بن سلول ومن معه من المشركين عبدة الأوثان :

لقد صعد نجم محمد وأصحابه، وليس لنا من حيلة، فهلموا فأظهروا الإسلام وبايعوا ..... فكانت وجوهُهم وجوهَ المسلمين وقلوبُهم قلوبَ الكفار.

في الدرك الأسفل، في النارِ ... مَن كان جليس الكفارِ
مَن كان يحوك لنا سوءاً ... ويصاحب كلّ الفجّار
ويخون الدين إذا استترا ... ويريد لنا كلّ عثار
فإذا يلقاك بدا حذراً ... ويجيء بسمت الأبرار
ويريك لساناً معسولاً ... وحقيقته سمّ هارٍ
ويداري ما أمكن عنا ... هيهات فمخبرُه عارٍ
فتحرّكه وتصرّفُه ... يفضحُ ما خلف الأستار
وسيبقى محتقراً أبداً ... ويعيش بذلّ وشنار
وسيصلى ناراً موقدةً ... في الأخرى، يا سوء الدار!

أصحاب رسول الله . صلى الله عليه وسلم .

خرج رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وأصحابُه إلى مكة يريد العمرة ، وذلك زمن الحديبية ، حتى إذا دنَوا من مكة قالت عيون النبي . صلى الله عليه وسلم . الذين بثَّهم يستطلعون له الطريق : إن خالد بن الوليد . وكان كافراً . يجول بمئتي فارس من فرسان قريش في منطقة قريبة من المسلمين تُدعى ((الغميم)) ، فتابع المسلمون السير وراءهم حتى أدركوا مؤخّرتهم ، فأحسَّ بهم خالد ، فأسرع بفرسانه يركض نذيراً لقريش .

وسار النبي . صلى الله عليه وسلم . بالمسلمين ، فقال : ((مَنْ يخرجنا من هذا الطريق الذي ساره فرسانُ مكة تحسّباً لكمين قد ينصبه المشركون ؟)) ، فقال رجل من أسلم : أنا يا رسول الله .

قال . صلى الله عليه وسلم . : ((خذ بنا عن يمين الطريق إلى سِيف البحر)) ، فسلك بهم طريقاً وعراً أوصلهم إلى أرض سهلة ، فقال لهم رسول الله . صلى الله عليه وسلم .: ((استغفروا الله)) ، ففعلوا .

قال – صلى الله عليه وسلم– : " والذي نفسي بيده إنها لَلحِطّة التي عرضت لبني إسرائيل فامتنعوا ". قال المسلمون: الحمد لله الذي هدانا لطاعته، فلما دنَوا من مكة بركت القصواء راحلة الرسول – صلى الله عليه وسلم– فألحّ المسلمون عليها أن تتابع المسير، فقالوا لها ما يقال للناقة إذا بركت: " حَل حَل " فأبت أن تقوم فقالوا: خلأت القصواء وحَرَنت، وهذا من عادة النوق.

فقال النبي – صلى الله عليه وسلم– : " ما خَلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق ولا اعتدنا منها هذه العادة، ولكن حبَسها الله عزّ وجلّ عن دخول مكة، كما حبس الفيل عن

دخولها " .

قصة الفيل معروفة مشهورة ذكرها الله تعالى في سورة الفيل مطلعها (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ (١) . . .) .

ولعل الناقة حين بركت وتوقف المسلمون بتوقفها كان ما فعَلته خيراً للمسلمين، فلو دخلوا مكة على تلك الصورة وصدّتهم قريش لوقع بينهم قتال قد يفضي إلى سفك الدماء، ونهب الأموال، كما كان حين دخل الفيل وأصحابه مكة، لكن سبق في علم الله تعالى في الموضعين أنه سيدخل في الإسلام خلق كثير، وسيخرج من أصلابهم من يوحد الله ويجاهد في سبيله .

كما أن بمكة جمعاً كثيراً من المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، فلو دخل المسلمون مكة وجرى قتال فقد يصيب هؤلاء المؤمنين المستضعفين بأيدي المسلمين ما يسوءهم كما قال الله تعالى في سورة الفتح الآية ٢٥ : (وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَاء مُّؤْمِنَاتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَؤُوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ . . .).

وأقسم رسول الله – صلى الله عليه وسلم– أن المشركين إذا سألوه خصلة فيها تعظيم لحرمات الله فليجيبنّهم إليها، ألم يقل – صلى الله عليه وسلم– : إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق ؟!.

ثم إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم– زجر الناقة فوثبت، فرجع بها حتى نزل بأقصى الحديبية على حفيرة فيها ماء قليل، لا يُتناول إلا بالكفين لقلّته، فشرب منه بعضهم حتى انتهى، أما جلّ الناس فقد افتقدوا الماء، فدعا بدلو فتوضأ منه ثم أفرغ وضوءه في العين وانتزع سهمه صلى الله عليه وسلم فوضعه فيها، ودعا الله تعالى ، ففارت الماء وتدفقت حتى ارتوى الناسُ ، وملأوا آنيتَهم ، وصدروا عن الماء وهو كثير ينبع لا يتوقف .

وبينما هم على ذلك إذ جاء بُديل بن ورقاء الخزاعي في نفر من قومه فيهم المسلم والمشرك ، وكلهم ناصحون للنبي . صلى الله عليه وسلم . ، فقد كانت بنو خزاعة وبنو هاشم أحلافاً في الجاهلية ينصح بعضهم بعضاً ، واستمروا على ذلك في الإسلام .

فقال بُديل : يا رسول الله لقد غزوتَ ولا سلاحَ معك فقال . صلى الله عليه وسلم .: ((لم نَجئ لقتال ، وليس معنا إلا السيوف في أغمادها)) .

قال بُدَيل : ولكنَّ قريشاً نزلت في الحديبية على آبارها ، وتركت لكم هذه الحفيرة يريدون لكم أن تعطشوا ، ويهيئون أنفسهم لقتالكم رجالاً وعدة وعتاداً .

قال الرسول . صلى الله عليه وسلم .: ((ولكنَّ الله تعالى أمدَّنا بالماء الوافر ، فهذه الحفيرة صارت نبعاً يروي المسلمين جميعاً . ولم نجئ للقتال ، ولكننا إن أرادوا قتالاً جالدناهم)) .

قال بُدَيل : يا رسول الله لقد أقسموا أن يدافعوا عن مكة ، ولا يظنون إلا أنك مقتحم عليهم .

قال رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : ((جئنا عمّاراً للبيت العتيق يا بُديل . . . وإن قريشاً نَهِكتهم الحربُ ، وأضرَّت بهم ، فإن شاءوا مادَدْتُهم مدَّة (هادنتهم) ويُخلُّوا بيني وبين الناس من العرب أدعوهم إلى الإسلام ، فإن ظهر غيرهم عليَّ كفَوْهم مؤنتي ، وإن أظهرْ على العرب فَأسُودَهم فلهم الخيار ، إن شاءوا تابعوني كسائر العرب ، وإلاّ فما تنقضي مدة الصلح إلا وقد استراحوا وتهيأوا لحربي ، وبهم قوة .

أمّا إذا أبوا مصالحتي ومهادنتي فليس أمامهم سوى القتال حتى ينصرني الله عليهم أو أقضيَ شهيداً . وإني على يقين أن الله تعالى ناصري عليهم وخاذلهم)) . يا رسول الله صلى الله عليك ، ما أعظم ثقتك بربك سبحانه !!

قال بُديل : يا رسول الله سأبلغهم ما تقول فأذن لي .

قال : ((على بركة الله)) .

فانطلق بُدَيل وقومه إلى الحديبية من الطرف الآخر ، حيث كان المشركون ، فقال لقريش : إنا قد جئناكم من عند محمد ، وسمعناه يقول قولاً معقولاً ، فإن شئتم أن نعرضه عليكم فعلنا . قال سفاؤهم : لا حاجة لنا أن تخبرنا عنه بشيء فانصرف .

وقال ذوو الرأي : هات . يا بُديل . ما سمعته يقول .

فحدّثهم بما قاله النبي . صلى الله عليه وسلم . ، فقام عروة بن مسعود — وهو من الطائف، سيد بني ثقيف وحليف لقريش فقال : أيْ قوم ألستُم مني وأنا منكم ؟ .

قالوا: بلى ، ومكانتك فينا عظيم كريم .

قال: أتتهمونني في حب وولاء وسداد رأي ؟.

قالوا: لا ، فأنت في الصدارة منا حكمةً وفهماً .

قال: ألم آمر أهل عكاظ أن ينصروكم ، فلما أبَوا نَصَرْتُكُم بأهلي وولدي ومَنْ أطاعني؟.

قالوا : صدقت أيها الشيخ ولا ننسى يدك البيضاء هذه .

قال عروة: فإن محمداً قد عرض عليكم خطّة رشد فاقبلوها منه ، وإن أردتم أن تستوثقوا من صحّة ما نقله بُدَيل فدعوني أذهب إلى محمد أتأكد من مقالته .

قالوا: افعل ما بدا لك ، لا نخالفك .

فانطلق عروة بن مسعود إلى رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، يكلم النبي . صلى الله عليه وسلم . ، والرسول الكريم يجيبه بما قاله لبديل . . . فلما تأكد عروة من صدق ما نقله بُديل التفت إلى الرسول الكريم . صلى الله عليه وسلم . فقال : يا محمد إن للحرب

إحدى نتيجتين : النصر أو الهزيمة. فإذا انتصرت على قومك واستأصلتهم فهناك العار والشنار على مدى الدهر . . إن العرب ستقول : إن محمداً أباد أهله وعشيرته ، وإذا كانت الهزيمة بدل النصر فهل هؤلاء الذين معك قادرون على الدفاع عنك وافتدائك بأرواحهم ؟!! إني لأرى أخلاطاً من الناس معك ، ولا أرى رجالاً ، وخليق بهم أن يفرّوا ويدعوك ، حين يحمى الوطيس وتَحْمَرُّ الحِدق . (ما يقوله وقاحة واستفزاز للمسلمين مهاجرين وأنصاراً).

وسمع المسلمون ما تقوّله وادّعاه فاشمأزّت النفوس مِن قالته وتجرأوا عليه .

وكان أكثرهم نفوراً منه أبو بكر رضي الله عنه ، فأجابه بما لم يكن يظن أن يسمعه . . ولكنّه يستحقه على سفاهته ، قال الصدِّيق : يا هذا ألست تدعي أن اللات التي تعبدها بنت لله ، وحاشا لله أن يكون له ولد ، فاذهب إلى اللاَّت وامصص بِظْرها ((وهي القطعة التي تبقى بعد الختان في فرج المرأة)) .

كان الجواب مقذعاً ، ولكنه شافٍ للنفس من سماجة هذا المدّعي . . ولكنْ أن تخرج هذه الكلمة من الصدِّيق الحيي اللطيف ؟! فهذا مؤشر على عمق الإساءة التي صدرت عن عروة بن مسعود هذا في حق المسلمين . وضحك المسلمون احتقاراً وازدراء لهذا الدعيّ المتطاول .

وقال عروة بعد أن وجم برهة لهذا الردِّ الذي لم يكن يتوقعه : مَنْ هذا الرجل الذي سبَّني ؟

قالوا : هذا الصدِّيق أبو بكر وزير الرسول الكريم . رضي الله عن الصديق صاحب رسول الله.

قال عروة : لولا أن لك جميلاً في عنقي . فقد ساعدتني في دية بعون حَسَنٍ . لرددت

عليك، ولكنْ هذه بتلك .

وكان عروة كلما كلم النبيَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ مدَّ يده إلى لحيته ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والمغيرة بن شعبة قائم على رأس النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومعه السيف ، وعلى وجهه المغفر كلما أهوى عروة بيده إلى لحية النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ضرب المغيرةُ يده بقائم سيفه وقال له : أخِّرْ يدك عن لحية رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن لا تصل إليك ، فإنّه لا ينبغي لمشرك أن يمسّه ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ويقول عروة لهذا الواقف : ويحك ما أفظك وأغلظك !! .

فلما أكثر المغيرة من قرع يد عروة قال :

ليت شعري يا محمد من هذا الذي آذاني من بين أصحابك ؟ فوالله لا أحسب فيكم ألأم منه ولا أشرَّ منزلة . . .

فتبسَّم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((هذا ابن أخيك ، المغيرة بن شعبة يا عروة)) .

قال عروة بن مسعود : بئس الابن أنت ، أحسنتُ إليك ، وأسأت إليَّ ! ثم التفت إلى ابن أخيه المغيرة فقال :

ألم تخرج إلى مِصْرَ مع ثلاثة عشر من ثقيف زائرين المقوقس ، فأحسن إليهم وأعطاهم أكثر مما أعطاك ، فغِرتَ منهم ، فلما كانوا بالطريق شربوا الخمر وسكروا ثم ناموا ، فوثبتَ عليهم وقتلتهم وحملتَ أموالهم ولحقت بمحمد في يثربَ ؟!!

إنني أنا الذي دفعتُ ديتَهم وما سلبتَه منهم ، وحقنتُ دماءنا ودماء بني ثقيف .

والتفت بعد ذلك إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((أما الإسلام يا عروة فقد قبلته منه ، فالإسلام يجبُّ ما قبله وقد حَسُن إسلام ابن أخيك .

وأما المال في الجاهلية فليس لنا أن نسأل عنه : إنما يكون هذا في الإسلام)) .

وأراد المسلمون أن يردّوا عملياً على تخرصات عروة حين قدح فيهم وذمَّ فقال : (إنهم أخلاط ، يفرون من اللقاء . . . لا كرام فيهم)، فما وقعت نخامة أو رذاذ من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في يد أحدهم حتى دلك بها يديه ومسح بها وجهه تبركاً بها .

وما سقطت شعرة من رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بادروا إليها يحفظونها في ثيابهم ، ولا توضأ ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلا بادروا إلا وضوئه يمسحون به وجوههم وجلودهم ، وإذا تكلموا بحضرته خفضوا أصواتهم ؛ ولا يديمون النظر إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ تعظيماً له .

فرجع عروة إلى قريش فقال : يا قوم ، لقد وفدْتُ على قيصر وكسرى ، والنجاشي ، فلم أر مليكاً قط يعظمه أصحابُه ما يعظم أصحابُ محمدٍ محمداً ، وقصَّ عليهم ما رآه من المسلمين في حق النبي محمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

ثم قال عروة: إن محمداً قد عرض عليكم ما فيه خير وعدل وإنصاف ، فاقبلوها منه.

لانت قناة المشركين لِما سمعوه من عروة في وصف المسلمين وهابوا لقاءهم ، خاصة أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ جاء معتمراً لا يريد حرباً . . كما أن دينه يعظم بيت الله الحرام ، الذي سيبقى قبلة العرب ، وستبقى لهم المكانة العالية ، فهم سدنته .

قال رجل من بني كنانة يدعى الحُليس بن علقمة : دعوني أستجلي الخبر ، قالت قريش : لك ذلك ، فانطلق . . وكان الرجل ممن لا يرضون أن يُصَدَّ أحد عن زيارة بيت الله ، ورآه المسلمون قادماً ، فلما عرفوه قالوا : هذا أمره سهل أرسلوا عليه الهدي . . فلما

رآى الهِدْيَ يسيل في الوادي عادَ إلى قريش وهو يقول :

والله إنهم عمّارٌ لبيت الله وليسوا محاربين، ومن الظلم أن تصدوا مَنْ قَصَدَ بيت الله،، يا معشر قريش ما على هذا عاقدناكم .

قالت قريش : كفّ عنا يا حليس حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى .

قال حليس : والله لا أكون معكم ، وعاد إلى مكة .

ثم جاء سهيل بن عمرو يفاوض المسلمين . . وكان ما كان من صلح الحديبية .

يا أصحاب رسول الله أنتم رهبان الليلِ
أمّا في الحرب الدهماءْ فتدفُّقُ ماءِ السيلِ
أنتم نور للأجيالْ يهدي للحقِّ الأمثلْ
أنتم صخرٌ بَلْهَ جبال ثَبَّتتِ الدين الأكملْ (١)

تَيْسٌ مستعار

طلق رفاعة القرظي ـ وهو خال أم المؤمنين صفية رضي الله عنها وكان أسلم حين أسلمت ـ زوجته تميمة بنت وهب ثلاثاً على عهد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وكانت تحبّه ويحبّها ، ولكنَّ الحمقَ قد يؤذي صاحبه ومَنْ يحبُّه . فكان الفراق بينهما فراق بينونة . . وهكذا أصبح لقاؤهما حراماً إلا إذا تزوجت المرأة من رجل آخر ، ولم تستطع العيش معه ففارقها كان لها أن تعود إلى زوجها الأول . .

ما أن انتهت عدتها حتى تقدَّم إليها عبدالرحمن بن الزَّبير القرظيُّ فسرعان ما رضيت به زوجاً .

فما مضتْ أيام من انتقالها إلى بيته حتى جاءت إلى بيت عائشة رضي الله عنها تشكو إليها ظلم زوجها الجديد، ووحشيّته ، فقد ضربها حتى ظهرت آثار الضرب على جسدها زرقاء ، تدلُّ على أنّه يصعب العيش معه .

وجاء رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى بيت عائشة ومعه أبوها الصديق رضي الله عنه، قالت السيدة عائشة للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : يا رسول الله هذه تميمة بنت وهب كانت تحت رفاعة ، فبانت منه ، فتزوجها عبدالرحمن بن الزَّبير ، فلم تمكث عنده أيام حتى جاءت شاكية ، فقد آذاها ، وقد رأيت أثر الضرب على جسدها ـ يا رسول الله ـ وهي تطلب أن يطلقها فما تستطيع أن تعيش مع رجل لا يرعى حرمة الزواج ، خاصة في أيام عرسها الأولى . .

وكانت عائشة تميل إلى قول تميمة هذه ، والنساء ينصر بعضُهن بعضاً .

والرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أعقل الناس ، وأكثرهم حكمة ، لا يحكم

لأحد حتى يرى حجة الثاني ويسمع منه ، فلعله صاحب حقٍّ والأول ألحنُ منه .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمرأة : ((ما خطبك أيتها المرأة ؟)) فأعادت عليه حديثها الذي ذكرته عائشة .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((أفلا نصلح بينكما ؟)) .

قالت : يا رسول الله لا أطيق العيش معه ولا أرغب فيه .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((فكيف قبلتهِ زوجاً ، وتودين الآن طلاقك منه ولما تمكثي معه أياماً)) .

قالت : يا رسول الله ، والله ما معه إلا مثل هذه الهدبة ، وأخذت هدبة من جلبابها تمثل به ما أرادت التعبير عنه . (تريد أن توهم السامع أن رفاعة القرظي ليس قادراً على الزواج)

وكان خالد بن سعيد بالباب يسمع قولها فقال مستاءً : يا أبا بكر ألا تنهى هذه المرأة عما تجهر به عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ . .

فتبسّم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لجرأة المرأة ، وحياءِ خالد بن سعيد .

ثم قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ((أين زوجُها ؟)) .

فجاء عبدالرحمن بن الزَّبير ومعه ابنان له من غيرها يتبعانه كأنهما فهدان ، فقال : إنها كَذَبَتْ، والله يا رسول الله ، إني لقادر أن أنفضها فوق الأرض نفضاً ، فأنا من فحول الرجال!!

فتبسَّم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قوله الصريح هذا ، يقوله أمام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولكنه ما صرَّح به إلا للدفاع عن نفسه ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((إنك ضربتَها فأثَّرتَ في جلدها !!)) .

قال عبد الرحمن : يا رسول الله إنها رضيت بي زوجاً ، فلِمَ منعتني نَفْسَها ؟! أليس هذا نشوزاً ، وغمطاً لحق الرجل ؟ .

فسألها النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن تجيب ، فسكتت .

فقال عبدالرحمن : إنها تريد الآن بعد أن عقَدْتُ عليها ولم أمَسَّها أن تعود لرفاعة زوجها الأول ، وما رضيت بي زوجاً إلا لأكون تيساً مستعاراً ، والله لا أكون .

وما ضربتُها إلا حين دفعتني وامتنعت عني ، وشتمتني وسبتني سباً قبيحاً .

والتفت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الولدين فقال لعبدالرحمن :

((أهذان ولداك ؟)) قال عبدالرحمن : نعم يا رسول الله . . . ثم التفت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى المرأة يقول مؤنباً :

((هذا الذي تزعمين ما تزعمين ، فوالله لهما أشبه به من الغراب بالغراب .

إنّه لا يجوز للمرأة أن تعود إلى مَنْ طلقها طلاقَ بينونة حتى تذوق عسيلة رجل آخر ويذوق عسيلتها)) . فيتمتّع بها وتتمتع به .

قال عبدالرحمن : والله لا أكون هذا الرجل يا رسول الله ! إنها طالق ثلاثاً . واستأذن ثم مضى لشأنه ومعه ولداه .

أما المرأة فقد خسرت زوجها الثاني ولم تستطع العودة إلى زوجها الأول .

إسلامُ ثقيف

في شوال سنة ثمان للهجرة أراد الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ المسير إلى الطائف ـ معقل بني ثقيف ـ فبعث الطفيل بن عمرو إلى ذي الكفّين ـ وهو صنم قريب من الطائف ـ يهدمه ، وأمره أن يستمدَّ قومَهُ ، ويوافيه بالطائف ، فخرج الطفيل سريعاً إلى قومه ، فهدم ذا الكفّين، وجعل يَحُشُّ النار في وجهه، ويحرِّقه ويقول :

يا ذا الكفَّين لستُ من عُبّادكا　　ميلادنا أقدم من ميلادكا

إني حَشَشْتُ النارَ في فؤادكا

وانحدر معه مِنْ قومه أربع مئةٍ سراعاً ، فوافَوْا النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالطائف ، بعد مَقْدَمه بأربعة أيام ، وقدِم بدبابتين ومنجنيق (١) ، وكان على مقدمة جيش رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خالد بن الوليد . وَرَمَّ ثقيفُ حصنهم ، وأدخلوا فيه ما يصلح لهم لسنة ، فلما انهزموا إلى داخل حصنهم أغلقوه عليهم ، وتهيّأوا للقتال ، وسار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزل قريباً من حصن الطائف ، وعسكر هناك فرمى المشركون المسلمين بالنبل رمياً شديداً ، كأنَّه رجل جراد ، حتى أصيب ناس من المسلمين بجراحة ، وقُتِل منهم اثنا عشر رجلاً ، فارتفع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى موضع مسجد الطائف اليوم ، وكان معه من نسائه أم سلمة وزينب ، فضَرَب لهما قُبَّتين ، وكان يصلي بين القبتين مدّة حصار الطائف ، فحاصرهم ثمانية عشر يوماً ، ورماهم بالمنجنيق ، وهو أول ما رمي به في الإسلام .

وحصلت شدخة عند جدار الطائف ، فدخل نفر من أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تحت دبابة ، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه ، فأرسلت عليهم ثقيف

سِكك الحديد محمّاة بالنار ، فخرجوا من تحتها فرمتهم ثقيف بالنبل ، فقتلوا منهم رجالاً ، فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقطع أعناب ثقيف ، فوقع الناس يقطعون فيها .

كان قطع الأعناب حرباً نفسيّة فتّ في عضد ثقيف ، فها هي زروعهم وثمارهم تقتلع أمام أعينهم ، ولا يستطيعون لها صَوناً .

ولكنهم لن يعدموا وسيلة ، فهم يعرفون رسول الله ، تقواه وورعَه ونُبلَ أصله فسألوه أن يدعها لله والرحم ، يا الله ! إنّه بعث للدعوة إلى الله وصلة الرحم ، وهم يسألونه بهما أن يحفظ عليهم أموالهم ، فأجابهم سريعاً ، ونادى مناديه أن كفّوا عن ذلك فامتثل المسلمون لذلك .

ثم نادى منادي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مخاطباً أهل الحصن من العبيد يريد أن يوهن جمع أسيادهم ويغيظهم :

أيما عبد نزل من الحصن وخرج إلينا فهو حرٌّ ، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً ، فأعتقهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ودفع كل رجلٍ منهم إلى رجل من المسلمين يمُونُه ويُمِدُّه ، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة ، فهؤلاء عبيدهم يصبحون أحراراً رغماً عنهم ، وينتقلون إلى صف المسلمين .

علم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه لم يؤذن له في فتح الطائف ، فقد رأى فيما يرى النائم أنّه أهدي له قَدَحٌ مملوءة زبدة فنقرها ديك فهراق ما فيها ، فذكر ذلك لوزيره الأول أبي بكر رضي الله عنه ، فقال الصديق : ما أظنُّ أن تدرك منهم يومك هذا ما تريده ، فقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : وأنا لا أرى ذلك ، ولم يكتفِ سيدنا الرسول أن يستشير واحداً فاستشار نوفل بن معاوية الدِّيلي فقال : ما ترى يا معاوية ؟ قال: يا رسول الله إنَّ مثلهم بين المسلمين كمثل ثعلب في جحر ، إن صبرتَ عليه أخذته ،

وإن تركته لم يضرّك .

فأمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، فأذّن في الناس بالرحيل ، فضجَّ الناس من ذلك وقالوا : نرحل عن الطائف ولم تُفتح علينا وقد فتح الله علينا مكة وهي أكبر وأعظم ؟!!

فأراد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يعلِّم المسلمين طاعة القائد ، فقال : ((فاغدُوا على القتال)) فغَدَوا ، فأصابت المسلمين جراحات فتألموا وتمنّوا الرحيل ، فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((إنا قافلون غداً إن شاء الله)) ، فسرّوا بذلك وأذعنوا ، وبدأوا يرحلون ، ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يضحك . . . فلما ارتحلوا واستقلوا ، قال : ((قولوا : آيبون ، تائبون ، عابدون ، لربنا حامدون)) فرددوها .

وقيل : يا رسول الله ؛ ادعُ على ثقيف .

قال : اللهم اهد ثقيفاً ، وائت بهم . . .

لقد بُعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ هادياً إلى الحقِّ داعياً ، ولم يبعث جابياً ، وهو نبي الرحمة بالإضافة إلى أنه نبي الملحمة . كيف يدعو عليهم ، وهو يحاربهم لا ليبيدهم إنما ليعطفهم إلى الحقِّ ويأطرهم عليه ؟.

وهكذا كان ، فلم يمض على ارتحاله عنهم عشرة أشهر حتى جاءه وفد ثقيف في رمضان من السنة التالية ، ولكنْ كيف جرت الأحداث حتى اقتنعوا بالدخول في الإسلام بقضّهِم وجمعهم ؟!!

إن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ لما انصرف عنهم تبعه أحد زعمائهم عروة بن مسعود حتى أدركه قبل أن يدخل المدينة ، فأسلم وسأله أن يرجع إلى قومه يرغّبهم في الإسلام ، قال له رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((إنَّ قومك أزمعوا أن يقتلوك إن

عدت إليهم مسلماً ، فما يزالون ممتنعين، يكرهون أن يتركوا دينهم إلى دين الله)) .

قال عروة: يا رسول الله ؛ أنا أحَبُّ إليهم من أبكارهم ، وكان فيهم كذلك محبّبا مطاعاً .

قال ـ صلى الله عليه وسلم : فأخرج إذاً . . وأكِلُ أمرك إلى الله .

فخرج عروة يدعو قومه إلى الإسلام وهو يرجو أن لا يخالفوه لمنزلته الرفيعة فيهم ، فلما وصل الطائف ، وأشرف على عَليّة له ، وقد دعاهم إلى الإسلام ، وأظهر لهم دينه ، رموه بالنبل من كل وجه ، فأصابه سهم فقتله .

لم يراعوا فيه منزلته ، ولا مكانته الرفيعَة فيهم ، لقد حركتهم نخوة الجاهليَّة ، وشياطين الإنس ، ووسوساتُ الجان . وهذا ما نراه في كل زمان ومكان ، لا يرعَون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة .

قال بعضهم متشفّياً : ما ترى في دمك ؟! ألم يذهب سدى ؟! قال : لا بل كرامة أكرمني الله بها ، وشهادة ساقها الله إليَّ (ياليْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ) وما أنا إلا واحد من الشهداء الذين قتلوا مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قبل أن يترحل عنكم ، فادفنوني معهم . فدفنوه معهم .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيه : ((إنَّ مثله في قومه كمَل صاحب يس في قومه)).

لقد كان مقتل عروة حدثاً جليلاً في قومه ، جعلهم يفكرون فيما هم عليه ويأتمرون بينهم ، ورأوا أنهم لا طاقة لهم بحرب العرب من حولهم الذين أسلموا ، وبايعوا رسول الله ، فأجمعوا أن يرسلوا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ رجلاً كما فعل عروة ، ثم أجمعوا على أن يرسلوا وفداً من القبائل كلها كان عددها ستة . وانطلق الوفد إلى المدينة ، فلما

دنوا منها لقيهم المغيرة بن شعبة فاشتد ليبشر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقدومهم ، فلقيه أبو بكر فقال : أقسمت عليك ، لا تسبقني إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حتى أكون أنا من يحدثه ، فأجابه المغيرة بن شعبة ، فدخل الصديق على رسول الله فأخبره بقدومهم عليه .

أما المغيرة فقد جلس إليهم وأعلمهم كيف يحيُّون رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((السلام عليكم ورحمة الله وبركاته)) فلم يحيوه إلا بتحيَّة الجاهليّة : عم صباحاً يا محمد... فأسلموا بعد ذلك وطلبوا أموراً ، منها :

١ ـ أن يدع الطاغية اللات ثلاث سنين لا يهدمه ، فأبى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قالوا فسنة ، قال : ((لا)) قالوا فشهراً قال : ((لا)) . . . لا يجتمع إيمان وشرك أبداً ، وكانت حجتهم أنهم يريدون أن يَسلموا من سفهائهم ، ويكرهون أن يروعوا أهلهم بهدمها حتى يدخلَهم الإسلامُ دخولاً على مراحل دون طفرة !! فبعث رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبا سفيان والمغيرة فهدماه .

٢ ـ أن يعفيهم من الصلاة . . قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((لا دين لمن لا صلاة له ، ولا خير في دين لا صلاة فيه ، إن بين الرجل والكفر تركَ الصلاة . وهي الركن الثاني من الإسلام)) .

٣ ـ أن لا يكسروا أوثانهم بأيديهم . . فهم قريبو عهد بالشرك ، فأجابهم إلى ذلك وأعفاهم منه ، وأمّرَ عليهم عثمان بن أبي العاص وكان أحدثهم سناً لكنّه حريص على التفقه في الإسلام وحفظ القرآن .

فلا يكون المسلم عظيماً إلا إذا عظم الإسلامُ في نفسه وفَقِهِ دين الله وكتابه وكان حريصاً على الاستزادة منه فهماً ودراية ، وعمِلَ بما عَلِمَ . . .

صورٌ من الرحمة

١ ـ دخلت امرأة على السيدة عائشة رضي الله عنها تزورها ومعها ابنتها ، فسألتها عن أمور دينها ، وأحوال نساء النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معه كي تقلدهنّ في الإحسان إلى زوجها، لترضيه فيرضى الله عنها، فقد سمعت أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال: ((لو كنت آمراً أحداً أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لعظيم حقه عليها)).

وأرادت السيدة عائشة أن تكرم هذه المرأة وابنتيها ، فلم تجد سوى تمرة واحدة ، أعطتها إياها ، وليس عيباً أن يفتقر الإنسان ، فالرزق من عنده سبحانه وتعالى ، إنما العيب أن تمنع جودك الناس ، وأنت تمتلك شيئاً يزيد عن حاجتك .

تبسّمت المرأة لأم المؤمنين وشكرت لها فضلها ، ثم قسمت التمرة بين ابنتيها ، فرحةً بهما ، مشفقة عليهما ، ينبع الحنان والحب من عينيها وفمها ، وتنظر إليهما سعيدة بهما فهما ريحانتاها وثمرة فؤادها .. وأم المؤمنين تراقبها متابعة ما تفعله المرأة بهما . ثم خرجت ..

ودخل النبي ـ صلى الله عله وسلم ـ ، فحدثته السيدة عائشة بما كان من المرأة فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((من يَلِ من هذه البنات شيئاً ، فأحسن إليهن ، كنَّ له ستراً من النار)) .

٢ ـ خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بيته إلى المسجد ، وعلى عاتقه حفيدته من ابنته زينب رضي الله عنها ، فكبر للصلاة وهي بين يديه فإذا ركع وضعها على الأرض ، وإذا سجد كانت بين يديه ، فإذا قام رفعها إليه . . وهي تلاعبه وتداعبه وترمي بنفسها عليه .

٣ ـ دخل الأقرع بن حابس التميمي على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فرأى

الحسن بن علي رضي الله عنهما على فخده ، ثم جعله بين يديه وقبّله .

قال الأقرع : السلامُ عليك يا رسول الله .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((وعليك السلام ورحمة الله وبركاته)) .

قال الأقرع : أتقبِّلون صبيانكم ؟! قالها وهو متعجب ، فنحن لا نقبلهم .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ: ((من لا يَرْحَم لا يُرْحم)) .

قال الأقرع : فإن لي عشرة من الولد ، ما قبّلتُ منهم أحداً .

فنظر إليه عليه الصلاة والسلام متعجباً من قساوة قلبه وقال:

((أَوَ أملك لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ؟!!)) .

٤ ـ قال أسامة بن زيد بن حارثة رضي الله عنهما : كان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحب أبي رحمه الله ويحبني لحبّه ، وكان إذا جئتُه قال : هذا الحِبُّ ابن الحِبِّ ، ويقبّلني ويُجلسني إلى فخذه وإذا ركب بغلته أو ناقته كثيراً ما أردفني خلفه .

جئته مرّة وأنا صغير ومعي الحسنُ بن عليّ فابتسم لنا ، ومدَّ يديه الشريفتين إلينا ، فأقعدني على فخذه ، وأقعد الحسن على فخذه الأخرى ثم أخذ يضمنا إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم يقول : ((اللهمَّ ارحمهما ، فإني أرحمهما . .)) .

٥ ـ أقبل رجلٌ من بعيد إلى مجلس رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، والصحابةُ رضوان الله عليهم متحلقون حوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ينظرون إلى وجهه المضيء ، ويسمعون هديه المنير ، فالتفت إليهم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : ((هذا الرجل قادمٌ يريد منّي مسألة وإني معطيه إياها إن شاء الله ، ولكنْ إذا سألَنيها فاشفعوا له ، والله يُؤجركم على شفاعتكم ولْيقض الله على لسان نبيّه ما يشاء)) .

فلما وصل الرجل سلّم على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وعلى أصحابه

الكرام ، ثم جلس ولما ينبس ببنت شفة فقال له النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((ألك حاجة يا رجل ؟)) .

قال : نعم يا رسول الله صلى الله عليك وسلم ، وذكرها فكان أصحابه يقولون :

ـ هو أهلٌ لفضلك يا رسول الله . .

ـ ما علمنا منه إلا خيراً يا رسول الله .

ـ أحسِنْ إليه يا رسول الله ، فما عهدناكَ إلا محسناً .

كان الرجل ينظر إليهم مسروراً من شفاعتهم ، وقد أحبّهم وشعر أنّه منهم . . يا لهذا المجتمع المسلم المتحاب المتكافل . . .

وابتسم الرسول ـ صلى الله عليه سولم ـ ، فقد اكتسب إلى المسلمين واحداً آخر ، وعلّم أصحابه مناصرة بعضهم بعضاً ، . . . وقضى للرجل حاجته .

خبث اليهود

لما فتح رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خيبر أهدته امرأة منهم شاة مشويّة فيها سمٌّ.

وعرف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ما فعلته ، فقد أخبره بذلك جبريل عليه السلام فتركها ولم يأكلها .

ثم قال عليه الصلاة والسلام :

((اجمعوا لي مَن كان ههنا من اليهود)) ، فَجُمِعوا له ، فلما مثُلو بين يديه قال لهم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ:

((إني يا معشر يهود سائلكم عن شيء فهل أنتم صادقيَّ عنه ؟)) .

قالوا : نصدقك ، فسل ما بدا لك .

قال : ((من أبوكم ؟)) قالوا : أبونا فلان .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((كذبتم ، بل أبوكم فلان)) ، وذكره لهم ، قالوا : صدقتَ وبرَرْتَ . . عجيب أمرهم يتعهّدون الصدقَ ولا يفون به .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((أسألكم الثانية فهل تتعهدون الصدق أم تكذبون كما فعلتُم بسابقتها؟)) .

قالوا : يا أبا القاسم نصدقك ، فقد عرفت كذبنا حين سألتنا عن أبينا .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((مَنْ أهل النار ؟)) .

سؤال لا يريدون أن يصدقوا فيه كعادتهم ، فلو صدقوا لكانوا مسلمين . . فرأوا المواربة أوفى لهم . . هكذا ظنوا فقالوا : نكون فيها يسيراً ، () وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّآ أَيَّاماً

مَّعدُودَةً () ثم تخلفوننا فيها . . . أخزاهم الله في الدنيا والآخرة .

قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((اخسؤوا فيها ، والله إنكم ماكثون فيها أبد الآبدين ، ولا نخلُفكم فيها أبداً ، فلنا الجنّة ولكم النار)) .

فلما رأوا غضبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ خنسوا ووجموا . .

فقال لهم الثالثة : ((فهل أنتم صادقيَّ عن شيء إن سألتكم عنه ؟)) .

قالوا : نعم نصْدقك يا أبا القاسم .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((هل جعلتُم في هذه الشاة سماً ؟)) .

قالوا : نعم . . . ولعلهم صدقوا هذه المرة خوفاً أن يأمرهم أن يأكلوها أو يقتلهم ، فقالوا نصدق .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((فما حملكم على ذلك ؟)) .

فقالوا : أردنا أنك إن كنت كذّاباً نستريح منك ، وإن كنت نبيًّا لم يضرّك . . .

أرأيتم إصرارهم على التكذيب به ، وعدم الرغبة في الدخول في الإسلام ؟!! قالوا وإن كنت نبياً لم يضرك ، ولم يقولوا : وإن كنت نبياً اتبعناك . . . .

لعنة الله على يهود ومَنْ والاهم .

حِلم رسول الله ورحمته

لما كانت غزوة أحد وانتصر المسلمون بادئ الأمر ثم دارت الدائرة عليهم لأن الرماةَ عصوا أوامره ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنزلوا من التل ، كسرت رباعيةُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وجُرح في شفته السفلى ، وشُجَّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جبهته الشريفة حتى سال منه الدم .

فجعل ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينشفه لئلا ينزل على الأرض ويقول : ((لو وقع منه شيء على الأرض ، لنزل عليهم العذاب من السماء)) . .

موقف عجيب لا يصدر إلا من رؤوف رحيم جبله الله تعالى على العفو والمغفرة . . . العدوُّ يحاصره ، ويسعى لقتله ووأد دعوة الإسلام في قتله ، ولو وصلوا إليه لمزقوه إرْباً إرْباً . . وهو عليه الصلاة والسلام ، وفي هذا الموقف العصيب ، يمنع دمه أن يسيل إلى الأرض ، لئلا ينزل العذابُ على ظالميه ، وطارديه ، والعازمين على التخلص منه ؟

لقد شق ذلك على الصحابة ، فقالوا : لو دعوتَ عليهم ، فهذا موقف قريب إلى الله تعالى ، وأنت يا رسول الله مستجاب الدعوة فاغتنم ما أنت عليه ، وادع الله أن ينصرك عليهم ، فنتخلص منهم . . فأبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

قالوا : لم إذاً نقاتلهم يا رسول الله ؟!

قال: ((لم أُبْعث لعّاناً ، ولكنْ بعثت داعياً وهادياً وراحماً ، وما نقاتلهم إلا لنأطرهم على الحق أطراً . . . اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون . . .)) .

وروى أبو هريرة رضي الله عنه فقال :

حدثنا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ساعة إلى أن قام ، فقمنا معه ـ صلى الله

عليه وسلم ـ ، فإذا أعرابي يلج المسجد بسرعة يسأل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، وهو لا يعرفه ، فقلنا له : هذا هو الخارج لتوّه من المسجد ، فتبعه مسرعاً ، فلما أدركه جبذه بردائه جبذة شديدة ، وكان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يلبس رداءِ خشناً ، فلم يعتد الدعاة لباس الحرير ، ولا الثيابِ اللينةِ الناعمة ، من الدمقس والإستبرق . . وكان ثوبه خشناً إذاً ، فاحمرّت رقبته ـ صلى الله عليه وسلم ـ لشدة الجبذة !! ؟

ماذا يريد هذا الأعرابي الغليظ ؟!!

إن كان له حق فليطلبه برفق ، فالرفق أسرع إلى قضاء الحوائج ، وإن كان يطلب عوناً فليست هذه طريقة يُكتسب بها العطف والشفقة والعون والمساعدة .

سيكون لهذه الجبذة ردُّ فعل غير محمودة عواقبها ، فلا ينتج عن القسوة إلا أختها ، ولا عن الغلظة إلا ما يناسبها . . .

. والتفت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ إلى الأعرابي ، يريد أن يسأله ما يريد . . فلم يمهله الأعرابي أن قال بلهجة الأمر ، وكأنه المنعم المتفضّل : احملني على بعيريَّ هذين ، أريد أن تملأهما طعاماً من مال الله الذي عندك ، لا من مالك ولامال أبيك . . !!

فظاظة ، وسوء أدب ، وتصرف مشين يصدر عن جاهل يظنُّ أنّه محقٌّ فيما يفعل ، وماذا تقول لأحمقَ ، هذه صفاته وهذا خلقه .

فسكت النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ هنيهة حتى استردَّ أنفاسه وهدأت حفيظته، ثم قال :

((المال مال الله ، وأنا عبده ، وأستغفر الله . . ولكنْ لا أحملك حتى تمكنني من القصاص منك فأجبذك بشدة مثلما فعلت بردائي فأسأتَ إلي)) .

فقال له الأعرابي : والله لا أمكّنُك من القصاص !

قال ـ صلى الله عليه وسلم: ((ولِمَ يا أعرابيُّ، ألا تستحق مكان السيئة القصاص؟)).

قال الأعرابي : لأنك لا تكافئ بالسيئة السيئة . . .

عرف الأعرابي أنَّه تسرَّع فأخطأ ، والرسول عليه الصلاة والسلام مثال الرجل الخلوق ، والطبع السليم والتصرف الحكيم .

فضحك النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ثم دعا عمر فقال له: ((احمِلْ له على بعيريه هذين ، على بعير تمراً ، وعلى الآخر شعيراً)) . . .

وجاء رجل آخر من الأعراب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولم يسلّم عليه بل فعل ما فعله الأعرابي الأوّل ، فقد شدَّ رسولَ الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من برده حتى بَدَتْ صفحةُ عنقه وقد أثرت فيها حاشية بُرده من شدة الجبذة ، ثم قال ما قاله أخوه من الأعراب : مُرْ لي من مال الله الذي عندك ، فالتفت إليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ بعين البصيرة ـ وكل نظر الرسول الكريم بصيرة ـ فرأى فيه رجلاً بسيطاً نقيَّ السريرة ، فأراد تثبيته على الإيمان ، وأن يجنبه الفتن والمزالق ، ويسلك به مسلك الرحمة والهداية ، فهذا أدعى إلى إسلامه ودخوله الجنّة ، والرسول الكريم حريص علينا رحيم بنا . التفت إليه النبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وضحك ، ثم أمر له بعطاء ، وقال له :

((يا أعرابي ، هل أحسنتُ إليك ؟)) .

قال الأعرابي وكأنه استقلَّ ما أخذ، فقد كان يطمع بأكثر من هذا : لا ، ولا أجملتَ. فغضب المسلمون ، وهمّوا أن يقوموا إليه مؤدبين .

فأشار رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن كفّوا .

فلما قام رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وبلغ إلى منزله دعا الأعرابيَّ إلى البيت . فقال: ((إنما جئتنا تسألنا فأعطيناك فقلتَ ماقلتَ)) فزاده رسول الله ـ صلى الله عليه

وسلم ـ شيئاً ، وقال : ((أحسنتُ إليك ؟)) .

فقال الأعرابي : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((إنك حين جئتنا وأعطيناك ، فقلتَ ما قلتَ ، وفي نفس أصحابي عليك من ذلك شيء ـ لقد غضبوا ـ فإذا جئت فقل بين أيديهم ما قلت بين يديَّ حتى يذهب الغضب عن صدورهم)) .

قال الأعرابي : نعم ، أفعلُ ذلك .

فلما جاء الأعرابي قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((إن صاحبكم كان جاءنا فأعطيناه ، فقال ما سمعتموه ، فوجدتم عليه ، وإنا قد دعوناه إلى البيت فأعطيناه فزعم أنه رضي . . أكذلك يا أعرابي ؟))

فقال الأعرابي : نعم جزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ معلماً ومربياً : ((إن مثَلي ومثَل هذا الأعرابي كمثَل رجل كانت له ناقة ، فشردَتْ عليه ، فاتّبعها الناسُ ، فلم يزيدوها إلى نفوراً . فقال لهم صاحب الناقة : خلّوا بيني وبين ناقتي ، فأنا أرفق بها ، وأنا أعلم بها . فتوجه صاحبها إليها ، وأخذ لها من نبات الأرض ، ودعاها حتى جاءت واستجابت ، وشدَّ عليها رحلَها؛ ولو أني أطعتكم حيث قال ما قال ، فوثبتم عليه ، لعاد كافراً ودخل النار)) . . .

بك يا رسول الله نلنا جنّة   وبك ابتعدنا عن سعير النار
برّا عطوفاً جئتنا فهديتنا   فعليك صلّى ذو الجلال الباري
يا رب فارحمنا إذا حُمَّ القضا   بشفاعةٍ عظمى من المختار
إني أحب رسولك الهادي فهب   لي رفقة الهادي مع الأبرار
من كان حبُّ محمد في قلبه   نال الهناء وحاز خير جوار (١)

وما علّمَناهُ الشعر

لم يكن القرآن الكريم شعراً ، والشعراء يعرفون ذلك ، ولم يكن نثراً بالمعنى الذي يفهمه الأدباء الناثرون .

وقد حكم بهذا الأعداءُ قبل الأصدقاء ، والمشركون قبل المؤمنين .

فهذا النضر بن الحارث يصف الرسول . صلى الله عليه وسلم . فيقول : يا معشر قريش ، إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعدُ ، قد كان فيكم محمد غلاماً حَدَثاً ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة . . . إلى أن يقول . . وقلتم : شاعر، لا والله ما هو بشاعر ، قد رأينا الشعر ، وسمعنا أصنافه كلها هَزَجَه، ورَجَزَه (١) ...

وهذا الوليد بن المغيرة حين سمع القرآن من الرسول . صلى الله عليه وسلم . أخذ يداول الأمر مع المشركين فيقولون . . . . نقول : شاعر . فيردّ عليهم الوليد : ما هو بشاعر ، لقد عرفنا الشعر كلّه رجزَه ، وهزَجه ، وقريضه ، ومقبوضه ، ومبسوطه ، فما هو بالشعر ، ثم يقول قولته المشهورة : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لعَذقُ (٢) وإن فرعه لجَناةٌ (٣) وما أنتم بقائلين من هذا شيئاً إلا عُرِف أنه باطل .

أما عتبة بن ربيعة فقد أرسله وجهاء قريش ليفاوض الرسول . صلى الله عليه وسلم . في أمر دينه ، فجاءه ، وعرض عليه السيادة والمال الوفير ، والنساء الجميلات ، والملك العريض ، والطبَّ . يداوونه زعماً منهم أن رِئِيّاً من الجنَّ يأتيه . ، والرسول . صلى الله عليه وسلم . يستمع حتى إذا انتهى قال : ((أفَرَغتَ يا أبا الوليد ؟)) قال : نعم . قال : ((فاسمع مني)) . . وقرأ عليه الرسول ﷺ صدراً من سورة ((فصّلتْ)) وعتبة ينصت مأخوذاً من بلاغة القرآن ، فلما قام إلى قومه قال بعضهم لبعض : نحلف بالله ، لقد

جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائي ؟!! أني سمعت قولاً ، والله ما سمعت بمثله قط، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة . يا معشر قريش ؛ أطيعوني واجعلوها لي، وخلّوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه، فوالله ليكوننّ لقوله الذي سمعت منه نبأ عظيم(٤) .

قَلْبُ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ موصول بالله وقراءته تنبع بجلالها وجمالها وحسن ترتيلها من هذا القلب العظيم بهذا القول الجليل ، وعتبة ذوّاقة ، أديب ، أريب . . قادته فطرته إلى أن هذا القرآن الذي سمعه ليس من عند رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، فحكمَ بما حكم ، وأبدى رأيه وانسحب . .

والقرآن الكريم يؤكد هذا (وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَا تُؤْمِنُونَ (٤١)) (٥) (وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ (٦٩)) (٦) .

وقد كان ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، وهو أفصح الناس وأعظمهم بلاغة يطرب للشعر ويعرف له مكانته وتأثيره في نفوس العرب ، فقد روى النسائي (٧) عن أنس رضي الله عنه أن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ دخل مكة في عمرة القضاء وابن رواحة الشاعر يمشي بين يديه وهو يقول :

خلّوا بني الكفارِ عن سبيله اليوم نضربكم على تنزيلهِ
ضرباً يُزيل الهام عن مقيله ويُذهل الخليلَ عن خليلهِ

فقال له عمر رضي الله عنه : يا ابن رواحةَ ، بين يَدَيْ رسول الله ، وفي حرم الله تقول شعراً ؟!! فقال النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((خلِّ عنه يا عمر ، فلهي أسرع فيهم من نفح النبل)) . . . إذاً فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يعرف أن الشعر يفعل في العرب أشدَّ ما تفعله السيوف (٨) وأنكأ .

وروى جندب بن سفيان البجلي قال (٩) :

أصاب حجرٌ إصبع رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ، فَدَمِيَتْ فقال (متمثلاً بالبيت المشهور) :

هل أنتِ إلا إصبع دَميتِ وفي سبيل الله ما لقيتِ (١٠)

وقولُ الرسول . صلى الله عليه وسلم . في غزوة حنين حين انفض عنه المسلمون لما فوجئوا بكمين هوازن مشهورٌ . .

أنا النبيُّ لا كذبْ أنا ابن عبدالمطّلب (١١)

وعن عائشة رضي الله عنها ، قيل لها : هل كان النبيّ . صلى الله عليه وسلم . يتمثل بشيء من الشعر ؟ قالت : كان يتمثل بشعر ابن رواحة ، ويتمثل بقوله : ويأتيك بالأخبار من لم تزوِّدِ (١٢) .

وعن أبي هريرة مرفوعاً :

((أصدق كلمة قالها الشاعر لبيد : ألا كل شيء ما خلا الله باطل)) (١٣) .

وقد كان . صلى الله عليه وسلم . يضع لحسان بن ثابت رضي الله عنه منبراً في المسجد قائماً يفاخر عن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . ويدافع عن الإسلام ويهجو الكفار ، وكان . صلى الله عليه وسلم . يقول له : اهجم وروح القدُس معك .

وقد قال له الرسول الكريم مرة : ((كيف تهجوهم (١٤) وأنا منهم ؟)) قال : أسلُّكَ منهم كما تُسَلُّ الشعرة من العجين ، فقال له . صلى الله عليه وسلم . : " استعن بأبي بكر فإنه نسّابة (عليم الأنساب)" .

وكلْناه إلى إيمانه

وروى سعد بن أبي وقاص قال :

اجتمع رهط عند رسول الله . صلى الله عليه وسلم . فأعطاهم من المال والأنعام ما رضيتْ به نفوسهم ، وكانوا قريبي عهد بالإسلام .

وكان في مجلسه . صلى الله عليه وسلم . رجل معروف بحسن الإيمان وكمال الإسلام فلم يعطه النبي . صلى الله عليه وسلم . ، فقلت في نفسي : إن هذا الرجل أحقُّ منهم بالعطاء ، وكنت أحسب أن العطاء على قدر التقوى ، وأن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . نسيَه ، فقلت : يا رسول الله هذا فلان إلى جانبك وأظنّه مؤمناً صالحاً لم تعطِه ما أعطيتهم ، وهو أحق منهم بذلك . وسكتُّ أنتظر ما يفعله النبي . صلى الله عليه وسلم . .

فلما لم أره أعطاه شيئاً . . . قلت : لعله . صلى الله عليه وسلم . لم يسمعني ، وهذا المال يوزَّع وقد ينفَذُ ولا يأخذ الرجل شيئاً ، فعدتُ لمقالتي : يا رسول الله هذا فلان إلى جانبك وأظنّه مؤمناً صالحاً لم تعطه ما أعطيتهم وهو أحق منهم بذلك .

لكنني لم أجد الرسول . صلى الله عليه وسلم . يجيبني أو يعطيه شيئاً ، فتعجبت مما فعل رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وسكتُّ ، إلا أن معرفتي بالرجل وصفاته الحميدة غلبتني فعدت أذكّر الرسول . صلى الله عليه وسلم . به . . وهو عليه الصلاة والسلام يعطيهم ويزيد في إكرامهم دون أن يلتفت إلى هذا الرجل ، فسكتُّ ولم أنبس بعد ذلك ببنت شفة .

فلما فرغ رسول الله . صلى الله عليه وسلم . التفت إليَّ ثم قال : يا سعد ، ما أعطيتُهم ومنعته حباً بهم وتفضيلاً لهم عليه ، إنه أحبُّ إليَّ منهم وأقرب إلى نفسي إلا أنهم حديثو

عهد بالإسلام ، ولما يدخل الإيمان في قلوبهم ، فأنا أتألفُهم ، وأرغّبهم فيه ، خشية أن يعودوا إلى الكفر فيكبهم الله في النار ، ووكلت ذلك الرجل إلى إيمانه ، إن من تمكن الإيمان في قلبه وحلَّ في سويدائه ، وذاق حلاوته استغنى به عن الدنيا وما فيها .

قلبٌ به الله لا يحتاج أُعطيةً

فالله أكرمه بالدين والتقوى

والمال يُهدى لتأليف الألى وهَنوا

والمؤمن الحق في إيمانه أقوى (١)

مَهر غالٍ

هذه امرأة يبدو عليها الحاجة إلى الاستقرار في بيت زوج مناسب ، يحفظها من أقاويل الناس إن بقيت دون زوج أو معيل ، فهي تعيش في وحدةِ ووحشة . . . أليس لها أب أو إخوة ؟! قد يكون . .، أليس لها أرحام يحوطونها ويدفعون عنها ويقضون حوائجها ؟! قد يكون . . . لكنَّ هؤلاء لا يملؤون مكان الزوج الذي يحدب عليها ، ويهتمُّ بها ، وتهتمُّ به ، يملأ عليها بيتها هناءةً وسعادةً ، وتحفظه في بيته وماله وولده . .

إلى أين تذهب ؟ وعلى مَنْ تعرض نفسها ؟!! فلتذهب إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فهو أولى بها من الآخرين ، وأولى بها من نفسها . وهو الرسول والقائد . . .

دخلت عليه ، فقالت : يا رسول الله جئت أهب نفسي !!

ولم تزد على هذا فليست رغبتها بالمهر ولا الأثاث الفاخر ، ولا بشيءٍ من بهارج الدنيا . . سوى رجل يصونها . . وها هي تهب نفسها للنبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إن أراد أن يستنكحها خالصة له من دون المؤمنين . . .

ووقفت أمامه ـ صلى الله عليه وسلم ـ طويلاً ، وهو ينظر إليها ، مصوّباً ومدققاً ، فهي تعرض نفسها عليه ، وله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يرى ، فقد تعجبه ، وقد لا تروق له ، فإن قال نعم فهي له . . ومن أدبه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يرفض هذا العرض بقول ، أو إشارة ، فهذا أدعى لحفظ ماء وجه المرأة وكرامتها ، وسكوتُه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أبلغ ردّ .

فلما طال مقامها ، قال رجل جالس في حضرة المصطفى ﷺ: يا رسول الله ، إن لم يكن لك بها حاجة فزوجنيها . نظر إليه الرسول الكريم ثم قال: ((ادخلي إلى عائشة)) ،

ثم قال للرجل : ((أعندك ما تدفعه مهراً لها ؟))

قال الرجل : لا يا رسول الله .

قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((اذهب ، فابحث ما تستطيع ولعلَّ أحداً ينفلك)) فذهب الرجل وعاد خالي الوفاض فقال :

والله يا رسول الله ما وجدتُ شيئاً فأنا رجل فقير .

قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((اذهب فالتمس شيئاً ولو كان خاتماً من حديد)) .

يريد ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الرجل أن يشعر بأهمية الزواج ، وأنّه حين يدفع مهراً لزوجته مهما قلَّ هذا المهر ، قد أصبح مسؤولاً عن بيته، وعليه أن يتعب ويكدَّ في سبيله ..

وكأن البحث قد أعياه ، ليس لأن المسلمين بخلوا عليه لكنْ ـ والله أعلم ـ ليعلم أن للزواج أعباءً ، ولحكمة يريدها الله سبحانه ، فعاد يقول حزيناً كاسف البال : لا ـ والله يا رسول الله ـ ولا خاتماً من حديد . . . وجلس لا يدري ما يفعل . . . كان عليه إزار ، والإزار ما يلفّه الرجل على جسده ويربطه على خصره أو على أحد عاتقيه وليس معه غيره ـ أما الرداء وهو الثوب المخيط يرتديه الإنسان فلم يكن يملكه .

قال : يا رسول الله أُصدِقُها إزاري هذا . . فنظر إليه رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال : ((أتعطيها إزارك ؟! إن أنتَ جعلتَه عليكَ لم تستفدِ المرأة منه ، وإذا كان عليها فستظلُّ أنت دون إزار)) . ووجم الرجل ، وجلس مكانه بائساً وقد أسقط في يده . فلما يئس ولى مدبراً ، وفي قلبه جرح كبير وحزن شديد . .

ولكنَّ النبيَّ الرحيم والرسول الحاني كان يريد له أن يبني بيتاً مسلماً فيه زوجة محبّة فاضلة ، وبراعم مسلمة تكون عدة للغد المسلم المشرق . .

قال لبعض أصحابه : ((ادعوه لا يبتعد)) فأسرع أحدهم إليه فقال : إن رسول الله ـ

صلى الله عليه وسلم . يدعوك . . فرجع مسرعاً مستبشراً . . . هذا أنا يا رسول الله ، هل دعوتني ؟ تبسّم النبي . صلى الله عليه وسلم . ثم قال : ((ما تحفظ من القرآن ؟)) قال : أحفظ كذا وكذا ، وبدأ يعدد السور التي يحفظها . . . إذاً فهو ليس فقيراً ، ففي قلبه كنوز رائعة وفيرة ، قال . صلى الله عليه وسلم . : ((قد ملَّكْتُكَها بما معك من القرآن ، بارك الله لكما ، وبارك عليكما وجمع بينكما على خير)) .

وكان هناك أسرة مسلمة جديدة .

اضربوا لي معكم بسهم

انطلق رهط من أصحاب النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ في سفرة سافروها ، فلما قاربت الشمس للمغيب أسرعوا الخطا ، فقد كان على مرمى نظرهم حيٌّ من أحياء العرب، وخير لهم أن يقضوا ليلتهم في أرض مأهولة ، من أن يقضوها في مكان مقفر موحش ، لا يدرون في هذا الليل البهيم ما يجري حولهم ، كما أنّ بإمكانهم زيارة القوم ، يتعرّفون إليهم ويدعونهم إلى الإسلام ، فإنْ كتب الله الهداية لأحدهم أو لهم جميعاً كما حدث لقبيلة عبد القيس غمرهم من الله الخير والفيض الرباني من الحسنات إلى يوم القيامة .

ووصل الرهط إلى مضارب القبيلة وسألوا أوّل واحد لقُوه :

أين شيخكم ؟ فدلوهم عليه ، فلما وصلوا إليه وسلموا عليه لقيهم بوجه جاف ، ولم يسألهم النزول عليه !! أمْرُهُمْ عجيب . . إنهم جميعاً كانوا بخلاء أصحاب شحٍّ وعهدهم بالعرب أهل كرم وضيافة . . ألم يقل الشاعر في مدح قبيلته :

يُغشَوْن حتى ما تهرُّ كلابُهم لا يَسألون عن السواد المقبل

وهذا طرفة لا يسكن التلال مخافة الضيفان ، بل ينصب خيمته أسفل الطريق ، ليسهل قدوم المسافر إليه :

ولست بحلّال التلاع مخافة ولكنْ متى يسترفدِ القومُ أرفدِ

وآب الرهط راضين من الغنيمة بالإياب وضربوا خيامهم قريباً من هؤلاء .

ولُدغ سيّدُ الحي ، فسعى له الناس بكل حيلةٍ ، فلم تنفعه حيلة ، إن الحمّى تشتد ، الزّبَدُ يخرج من فمه ، فما هم فاعلون !؟

قال بعضهم : لو أتيتم هؤلاء الغرباء الذين قد نزلوا بكم ، لعله أن يكون عند بعضهم

دواء أو ترياق فننقذ صاحبنا .

فأتوهم ، وقالوا : أيها الرهط إن سيدّنا لُدغ ، فسعينا له بكل شيء ينفعه ، فلم يُشفَ ، فهل عندكم ما تداوونه به ؟.

قال أحد الرهط : نعم والله ، إن عندنا ما ينفع .

نظر أحدهم إلى صاحبه . . إنّه يعلم أنْ ليس معهم شيء ، وما منهم طبيب . .

إلا أن القائل أردف : ولكن والله لقد استضفناكم فلم تضيّفونا ، وما أنا لكم راقياً حتى نأخذ أجرتنا ، فإن فعلتم رقيناه .

قالوا لكم ذلك .

قال الراقي : نذهب معكم على أن يكون لنا قطيع من الغنم ،

قال القوم : نعم ، فهلمّوا . .

فانطلق الجميع حتى وصلوا إلى سيّد القوم الذي جفاهم وطردهم فرأوه يتلوّى من الألم، فقرأ عليه الفاتحة مرّات كثيرة ، وكان كلما قرأ مرة يتفل عليه وينفخ حتى أبرأه الله تعالى فكأنما نشط من عقال ، يمشي ليس يشعر بألم . فأوفوهم ما اتفقوا عليه .

قال بعضهم : اقسموا بيننا هذا الرزق ، فهو حلال .

قال الراقي : لا تفعلوا ذلك حتى نأتي رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فنقصَّ عليه ما فعلنا . قالوا : نعم فلعلها رُقْيَةٌ لا تجوز لنا ، فلما قدموا عليه ـ صلى الله عليه وسلم ـ أخبروه بما كان .

فقال : وما يدريك أنها رُقيةٌ ؟ أصبتُم ، اقسموا ، واضربوا لي معكم بسهم .

أبو طلحة وسعد ـ رضي الله عنهما ـ

نحن الآن قرب جبل أحد ، بينه وبين جبل الرماة ، والمشركون يحيطون بالمسلمين بعد أن كان المسلمين يحيطون بهم ، فلماذا انقلب نصرهم إلى هزيمة ؟!! وهل يعقل أن ينهزم المسلمون وفيهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟! .

الهزيمةُ : شعور بالضعف ، يتبعه استخذاء ويأس ، ثم إحساس بفتور العزيمة ، ثم رغبة في التخلّي عن القتال ، وهذا يؤدي إلى خوف يتنامى حتى يُلجِئَ صاحبه إلى الهروب من أرض المعركة ، والفرار بالنفس مخافة الموت أو الأسر .

ويترك الفارُّ كلَّ شيء طمعاً بالنجاة وينسى أنه مقاتل فيكون جلُّ همه منصباً على مجانبة النزال . . . ثم يطلق ساقيه أو فرسه للريح . . غير مبالٍ بما يصيب الآخرين من قتل أو أسرٍ، وتنحلُّ عقدة الجيش وينفرط جمعه ، ويلحق العدوُّ بهم ليجهز عليهم إن استطاع.

فهل حدث هذا للمسلمين يوم أحد ؟ ..

١ ـ أصدر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ للمسلمين أمراً أن يجتمعوا ، فقد تفرَّقوا أوّل الأمر وراء المنهزمين من مشركي قريش ، ونزل الرماة عن الجبل فدهمهم خالد مغتنماً الفرصةَ فصار من ورائهم بفرسانه ففاجأهم فبغتوا إلا رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومَنْ معه . .

٢ ـ قتل عدد من المسلمين كانوا يجالدون المشركين مهيئين الفرصة للآخرين أن يجتمعوا حول الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ فيكونوا قريبين من القائد ، فيدافعون عنه وعن أنفسهم ، وليؤكدوا لهم أن الإشاعة بقتل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ التي أطلقها المشركين لتوهين عزائم المسلمين ليس لها ذرةٌ من الصحة ، فيثوبوا إلى رشدهم ويعودوا للقتال ،

ولكي يذكروهم أن القتال الدائر ليس للدفاع عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فحسب بل لتثبيت دعائم دين الله سبحانه وتعالى ، وليموتوا على ما مات عليه محمد عليه الصلاة والسلام ، ولينبهوهم إلى أن الموت في سبيل الله خير من الهروب والفرار والعودة إلى الجاهلية .

هذه المجالدة والمصابرة مكّنت رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من اللجوء إلى سفح جبل أحد فأمّنت لهم الغَطاء الظهريّ وباتوا أحسنَ حالاً ، فقاموا بهجوم مضادٍّ أوقف تقدُّم المشركين وأقنعهم بالتوقف عن مهاجمتهم ، فاحتجز الفريقان كلٌّ منهما يهابُ الالتحام بالآخر . . إذاً . . . فهذه ليست هزيمةً بالمعنى الذي يفهمه الناس ، فالمسلمون في أرض المعركة ، وجهاً لوجه أمام العدو الذي أمسك عن ملاحقتهم لقناعته بأنه لا يقدر على ذلك ، ولو كان يظنّ إمكانيّة استئصالهم لفعل ، وما جاء إلا لذلك ، ولحدَّثته نفسه باحتلال المدينة المنورة واستباحتها ، والقضاء التام على نور الإيمان . . .

فهذه جولة ينتصر الباطل فيها انتصاراً لا يوازي خسارته الشنيعة أمام المسلمين في بدر ، لكنّه رضي بما نال المسلمين من جهد وضعضعة .

والرسول عليه الصلاة والسلام يصوّر هذا أحسن تصوير فيقول :

((رأيت في رؤياي أنّي هززت سيفاً ، فانقطع صدره ، فإذا هو ما أصيب من المؤمنين يوم أحد ، ثم هززته أخرى ، فعاد أحسنَ ما كان ، فإذا هو ما جاء به الله من الفتح واجتماع المؤمنين ، ورأيتُ بقراً – واللهُ خيرٌ – فإذا هم المؤمنين يوم أحد)). رواه البخاري.

في أحد كان أبو طلحة رضي الله عنه ثابتاً مع رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، يحوطه بترس من جلد ، يحميه من نبال المشركين ، فإذا أشرف النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من خلفه ينظر إلى القوم خاف عليه أبو طلحة ، وقال : بأبي أنت وأمي يا رسول الله ، لا

تشرف يصبك سهم من سهام القوم . . نحري دون نحْرك يا رسول الله .

وكان أبو طلحة نبّالاً شديد الرمي شديد النزع كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة ، فكلما مرَّ مُسْلِمٌ بهما قال النبي ـ صلى الله عليه وسلم له ـ : ((انثر ما فيها لأبي طلحة)) .

وكان سعد بن أبي وقاص إلى جانبهما يرمي السهام ، وكان رميه دقيقاً سريعاً صائباً ، أوقع في العدوّ وخلخله ، فكان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشجعه ويحفز همته قائلاً : ارمِ سعد ، ارمِ ، فداك أبي وأمي)) . .

وكان سعدٌ رضي الله عنه يسمع هذا فيزداد نشاطاً .

وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يدعو على المشركين فيقول :

((اشتد غضب الله على مَنْ قتله النبيُّ ـ صلى الله عليه وسلم ـ)) .

((اشتدَّ غضبُ الله على قوم دمَّوْا وجه نبي الله)) .

وقد كُسِرَت رَباعيتُه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ودخلت بعض حلقات المغفر في وجهه الكريم ، وشُجَّ وجهه وكُسِرَت البيضة على رأسه ، والبيضة غطاء الرأس .

. ولما وقف المشركون والمسلمون وجهاً لوجه قال أبو سفيان قائد المشركين أنشدكم الله أفيكم محمدٌ ؟ يريد أن يعرف أحيٌّ هو أو ميتٌ ، فأمرهم الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن لا يجيبوه ، فيظن أبو سفيان أن رسول الله قتل ، وهذه أدعى إلى تسكين همة المشركين . . فلم يجيبوه .

ونادى مرَّة أخرى : أفيكم أبو بكر بن أبي قحافة ؟ فما أجابوه . ونادى ثالثة : أفيكم عمر بن الخطاب ؟ . . . .

لم يستطع عمر رضي الله عنه السكوت لأكثر من سبب .

الأوّل : أن طبيعته تميل إلى ردّة الفعل وقد كان مغتاظاً من المشركين . .

الثاني : أنه أراد إغاظة المشركين بوجود الرسول الكريم ووزيريه أحياء ، فكأن مسيرة الدعوة ستستمر بحياة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ على الرغم من كيد الكائدين وحقد الحاقدين .

الثالث : ليريهم أن المسلمين قادرون وهم على هذه الحال أن يتابعوا القتال . . وقد تبسّم الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ حين سمع عمر رضي الله عنه يقول : أخزاك الله يا ابن حرب فها هو رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ حيٌّ وإلى جانبه الصديق، وأنا عمر ..

فتوقف أبو سفيان عن تعداد من كان يظن أنهم قتلوا ثم صاح بأعلى صوت :

أُعلُ هبل أُعلُ هبل ، والمسلمون ساكتون ، فقال الرسول المعلّم : ((ألا تجيبونه ؟)) قالوا : وماذا نقول ؟ قال : ((الله أعلى وأجل)) فارتفعت صيحات المسلمين بتحدٍّ وإصرار تملأ أرجاء المكان :

الله أعلى وأجلُّ ، الله أعلى وأجل . . .

فما كان من شيطان أبي سفيان إلا أن وسوس له فقال: لنا عزّى ، ولا عزّى لكم ..

دعوةٌ عجيبة ، غريبةٌ ، تدلُّ على سفاهة قائلها ، ومَنْ عُزَّى هذه ؟! إنها صنم يعبده المشركون كان بوادي نخلة ، هدمه خالد رضي الله عنه وقتل شيطانته وسادِنَها .

والتفت الرسول الكريم إلى اصحابه قائلاً : ((ألا تجيبون ؟)) قالوا : وبم نجيب يا رسول الله ؟ قال : ((قولوا : الله مولانا ، ولا مولى لكم)) فارتج المكان بصيحات المسلمين .

الله مولانا ، ولا مولى لكم . . . الله مولانا ، ولا مولى لكم . .

وعاد المشركون راضين بما حصلوا عليه من المعركة ، إلى مكة ، ورجع المسلمون بجراحاتهم إلى المدينة ،

لكنَّ الله تعالى أراد أن يُري المشركين قوَّة المسلمين فلا يفكرون بالهجوم على المدينة ، وليبلغهم أن هذه المعركة لم توهن المسلمين ، فخرج رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالمسلمين المقاتلين أنفسهم دون غيرهم بجراحاتهم إلى حمراء الأسد جنوب المدينة باثني عشر كيلو متر فأقام فيها ثلاثة أيام ينتظرون فيها المشركين الذين قرروا ملاحقة المسلمين إلى المدينة ، قائلين : أصبنا حدَّ أصحابه ، وأشرفهم ، وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم ؟! لنكرَّن على بقيّتهم فلنفرغَنّ منهم . . فلما علموا انتظار المسلمين لهم أوقع الله الرعب في قلوبهم فثنَوا رواحلهم وانطلقوا إلى مكة . .

وعاد المسلمون إلى مدينة رسول الله ، وعين الله ترعاهم .

زاهر . . . وابن مسعود رضي الله عنهما

. رجل من أهل البادية اسمه زاهر . . ولكل من اسمه نصيب ، فهو ذو روح طيبة وأخلاق رائعة تفوح منه كرائحة الزهر الأخَّاذة .

.كان إذا جاء المدينة حمل إلى النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من باديته خيرها ، لبنها ، سمنها ، زبدتها ، ويقول : يا رسول الله هذه هدية زاهر إليك ، فاقبلها منه تجبرْ خاطره ، وتسعدْ قلبه .

.كان النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يبتسم له ويأخذها منه قائلاً : قد قبلناها منك يا زاهر ، جزاك الله عن نبيّه خيراً ، وأجزل لك المثوبة ، فإذا ما عاد إلى أهله جهزه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ من الطُّرَف والمستحسنات المدنيَّة ما يقر بها عينه ، جزاءً وفاقاً ، وكان ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول : إن زاهراً باديتنا ، ونحن حاضره ، وكأنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول للناس : تهادَوا تحابُّوا . . ومهما كانت الهديّة صغيرة فإن أثرها في النفس كبير . .

. رآه ـ صلى الله عليه وسلم ـ في السوق مرّة فجاءه من خلفه ، واحتضنه ـ وكان زاهر دميماً ـ إلا أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يحبه لحسن أخلاقه ورفعة شمائله . . وحاول زاهر أن يعرف محتضنه فالتفت قائلاً : دعني يا من احتضنني ، فلما عرفه جعل ظهره إلى صدر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ تيمّناً وتباركاً ، واجتهد أن يظل ظهره ملتصقاً بصدر المصطفى عليه الصلاة والسلام ، فجعل النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول: ((من يشتري العبد ، من يشتريه ؟)) .

فيقول زاهر : إذن ـ والله ـ تجدني كاسداً ، من يشتري دميماً يا رسول الله ؟ !!

فيقول الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ :

((ولكنّك عند الله لست بكاسد ، أنت عند الله غال . إن الله لا ينظر إلى صوركم وأجسادكم ، إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم)) . . إلى محل التقوى ، والخلق الرفيع ، والعمل الصالح . . .

وقيمةُ الإنسان بمخبره لا بمظهره .

وقد كان عبدالله بن مسعود حين أسلم أبى إلا أن يعلن بالقرآن عند الكعبة فحذره رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من المشركين أن يؤذوه فقال : ومالي أن ألقى في سبيل الله ما ألقى !!

وصدح بالقرآن الكريم والمشركون يسمعون ويكرهون . فما كان من أبي جهل إلا أن شدّه من أذنه شدَّة قطعتها ، فرماها إليه وهو يضحك شامتاً .

أخذ الألم من ابن مسعود مأخذه ، وحمل أذنه إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يشكو ظلم الظالمين ، وفجور المستكبرين . فما كان من الطبيب الرحيم إلا أن أعادها إلى مكانها ، ودعا الله له بالشفاء ، فعادت كما هي كأنها لم تقطع ..... يد مباركة رحيمة ، خصَّ الله صاحبها ـ صلى الله عليه وسلم ـ باليمن ، بالخير والبركات .

قال ابن مسعود رضي الله عنه : لهي أقوى من أختها وأسمع ، ولأختُها أشدُّ حاجة إلى ما حصل للأولى ، وهمَّ أن يعود إلى المشركين ليسمعهم القرآن الكريم ويغيظهم ، فيقول له المعلم الأول : حسبك الآن يا ابن مسعود فلقد كان ما فعلته اليوم شديداً عليهم . .

ويوم بدرجاء ابن مسعود رضي الله عنه يحمل رأس من قطع أذنه رأس أبي جهل ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم " الأذن بالأذن ، والرأس زيادة .

هذا الصحابي الجليل كان قصيراً نحيفاً . . صعد مرة إلى شجرة ، فرأى الصحابة دقة

ساقيه فضحكوا لذلك ، فما كان من الهادي العظيم وأستاذ الأساتيذ إلا أن نبههم إلى أن كرامة الإنسان ومكانته بعمله لا بقوله فقط ، وبفعله لا بمظهره فقال : إن ساقه لأثقل عند الله من جبل أحد . . نعم من جبل أحد .

ليس الإنسان بمظهره وبمسكنه وبما يملك
فإذا ما ظنّ بها يعلو في الدركِ هوى ، وبه يهلِكْ

– – –

إن الإنسان بتقواهُ يعلو ويبارك مسعاه
والعمل الصالح يرفعه في الناس ، ويكرمه الله

– – –

فاعمل خيراً تلقَ الأجرا ترُفعْ عند المولى ذكرا
وتعاهد إخوانك دوماً فإذا عسرْك يصبحُ يُسرا(١)

ثم أسلمتُ

قال أحد أحبار اليهود – زيد بن سعنة – الذين أسلموا حين رأوا صفات النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ المكتوبة في التوراة واضحةً وضوحاً بيّناً في رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم: لم يبقَ من علامات النبوّة الداعية إلى تصديق الرسول الكريم واتّباعه علامة إلا وعرفتها إلا صفتين اثنتين لم يتسنَّ لي معرفتهما .

الأولى : يسبق حلمه جهله . . فهو واسع الصدر حليم لا يغضب لنفسه .

الثانية : كلّما جهل عليه أحد زاد حلمه وأضاءت أخلاقه ، فكنت أزوره وأتطلف له لأستطيع مخالطته والتعرُّف عليه عن كثب ، فلما خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يوماً من الأيام من الحجرات (وهي بيوت أزواجه رضي الله عنهن) ومعه علي بن أبي طالب رضي الله عنه ، أتاه رجل بدوي على راحلته ، فقال :

يا رسول الله إن قرية بني فلان قد أسلموا ، وقد أصابهم قحط شديد ، وجوع هدَّ جسومهم ، وأنا رسولهم ، فإن رأيت أن ترسل إليهم بشيء تعينهم به يكونوا لك شاكرين ، ولأفضالك ذاكرين ، ولم يكن مع الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ إذ ذاك شيء يعطيه إياه ، ولا في بيت مال المسلمين ما يكفي ، فقال له : انتظر يا أخا العرب لعلَّ الله تعالى يؤذن بالفرج . فقلت لنفسي : يا زيد هذه فرصة ذهبيّة فاغتنمها ، لتختبر حلم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فدنوت منه فقلت :

يا محمد إن رأيتُ أن تبيعني تمراً معلوماً من بستان بني فلان إلى أجل كذا وكذا (وكان تمرهم معروفاً بجودته) فقال : ((لا ، يا أخا يهود ، ولكنْ أبيعك تمراً معلوماً إلى أجل محدود معروف ولا أسمي بستان بني فلان)) .

فقلت : نعم . فبايعني وأعطيتُه ثمانين ديناراً ، سرعان ما أعطاها لذلك الرجل وقال له: انطلق إلى قومك راشداً عسى الله تعالى أن يخفف عنهم . .

استدان رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ليخفف عن الناس ، ويقضي حوائجهم ، ويعينهم على نوائب الدهر ، وهكذا القائد يسعى إلى خدمة مرؤوسيه ويسهر على مصالحهم ، ويجهد نفسه ليراهم في موقف مريح ، وحياة طيبة ، أما من يستغل منصبه ليملأ خزائنه ظلماً وعَدْواً ، ويمتص قوت شعبه ، ويفرض عليهم ما يثقل كاهلهم ، ويرهقهم ، ليفوز بالمال ويغنى على حسابهم دون أن يأبه لهم ، لصٌّ لا خير فيه ، ومجرمٌ لا فرق بينه وبين قطّاع الطرق .

قال زيد : فلما كان قبل محل الأجل بيومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في جنازة رجل من الأنصار ، ومعه أبو بكر ، وعمرُ ، وعثمانُ ، في نفر من أصحابه ، فلما صلى على الجنازة أتيتُه ، فأخذت بمجامع ثوبه ونظرتُ إليه متصنِّعاً الغلظة والجفاء ، ثم قلت : ألا تقضي يا محمد حقِّي ، ها قد مرَّ الأجل ولم تلتزم بوعدك فيه ؟ فوالله ما علمتكم ـ يا بني عبدالمطلب ـ لسيّئي القضاء ، مُطْلاً ، ورأيته وقد أثرت جبذة الرداء في عنقه ، ولم ينبس حتى ذاك الوقت ببنت شفة .

فتحرَّك عمرُ وعيناه تدوران من الغيظ ووجهه محمرٌّ من الغضب واستَلَّ سيفه قائلاً :

أيْ عدوَّ الله أتقول ذلك لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ؟ خلِّ عنه ، فوالذي بعثه بالحقِّ لولا العهدُ الذي بيننا وبينكم – معشر يهود – لضربتُ بسيفي رأسك .

ورسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ينظر إلى عمر بسكون وتبسُّم فقد كان عمر بلسماً لجراحات المسلمين مدافعاً عنهم خادماً لهم ، أفلا يكون كذلك لسيده وسيدهم جميعاً محمد رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ !

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معلماً عمرَ ومعلماً إياي ومَنْ كان حاضراً: ((يا عمر أنا وهو إلى غير هذا منك أحوج . أن تأمره بحسن الاقتضاء ، وتأمرني بحسن القضاء ، اذهب يا عمر إلى بيت مال المسلمين ، بزيد بن سعنة فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً مكان ما روّعْتَه وأفزعته .

ما هذا الخلق العظيم والحلم الواسع والهدوء الرائع ؟! والله ما يكون هذا إلا لنبي ، وإن محمداً لهو رسول الله حقاً وصدقاً ، وانطلق بي عمر ليعطيني حقي وهو واجد عليَّ ، لكنّه لا يملك إلا التزام أمر رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فلما وصلنا قال لي : هذا حقك يا رجل ، فخذه ، لا بارك الله لك فيه .

قلت : ((بل إنه سبحانه بارك لي فيه . أتدري يا عمر ؟)) .

فنظر إليَّ دهشاً وقال : وكيف ذلك يا يهوديّ ؟

قلت : يا عمر ، كل علامات النبوّة قد عرفتُها في وجه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، إلا اثنتين لم أخبرهما : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدّة الجهل عليه عليه إلا حلماً ، فقد اختبرته بهما ، فاشهد يا عمر أني قد رضيتُ بالله رباً وبالإسلام ديناً ، وبمحمد ـ صلى الله عليه وسلم ـ نبياً ، وإني أشهدك يا عمر أن هذا التمرَ وشطرَ مالي (نصفه) إلى فقراء المسلمين .

واعتنق عمر زيد بن سعنة أخاه في الإسلام واعتنق زيدٌ أخاه عمر في الإسلام .

وأسلم أهل بيته إلا شيخاً كبيراً غلبت عليه الشقوة .

اللهم صلّ على حبيبك رسول الله واحشرنا في زمرته المباركة ، وشفّعْه فينا ... يا أكرم الأكرمين ..

كانت بنو النضير من المدينة على ميلين ـ ثلاثة كيلو مترات ـ فلما نقضوا عهدهم وتآمروا على رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأرادوا قتله غيلةً ، وخططوا لذلك فضحهم الله تعالى ، وأمر رسوله الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فزحف بجيشه إليهم ، فلما علموا بقدومه دخلوا حصونهم يحتمون بها ، فلما ألقى الله تعالى الرعب في قلوبهم ـ فقد نصر رسوله الكريم بالرعب مسيرة شهر ، فماذا تقول في ميلين ـ نزلوا على حكمه ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، فأجلاهم ولم يسمح لهم أن يحملوا معهم إلا ما يستطيعون من زاد ، وثياب ، وآنية .

فالمسلمون – إذاً – لم يقاتلوا ، ولا ركبوا إلى بني النضير طريقاً شاقاً ، ولم يبذلوا ذلك الجهد المضني ، افتتحها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وأجلاهم عنها وأخذ أموالهم ، فجعلها الله تعالى لرسوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ، يضعها حيث يشاء ، وله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أن يصرفها على نفسه وعلى مصالح المسلمين ولأقرباء الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولليتامى والمساكين والغريب المنقطع . قال تعالى في سورة الحشر الآية ٧ : ((مَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ)) . . .

وتنطبق هذه الآية كذلك على يهود بني قريظة . وظن أزواجه حين قرأن هذه الآية أن الله تعالى اختصه بنفائس يهود وذخائرهم ، وكنَّ تسع نسوة ، فقلن :

يا رسول الله ؛ بناتُ كسرى وقيصر في الحليّ والحلل والإماء ، والخدم والحشم ، ونحن على ما تراه من الفاقة ، والضيق ، وقلّة ذات اليد .

وآلَمْنَ قلبه بمطالبتهن إياه بتوسعة الحال ، وأن يعاملهن بما تعامل به الملوك وأبناء الدنيا وأزواجهم . . ولم يكن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يفكر بنفسه أبداً ، كما لم يفكر بأهله ، ولم يخطر على باله أن يوزع هذا المال على نسائه ليعشن في أبّهة ، وسعةٍ ، ورغد ، إنه لا يريد لنفسه ولا لهنّ أن يعيشوا كما يعيش ذوو الجاه والسلطان . إن المال يُطغي ، ويجعل صاحبه يترفّع .

(كَلَّا إِنَّ الْإِنسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَن رَّآهُ اسْتَغْنَى (٧)) .

إنه ـ صلى الله عليه وسلم ـ يريد لآله أن يعيشوا كفافاً لا لهم ، ولا عليهم وكثيراً ما دعا : ((اللهم أحيني مسكيناً ، وأمتني مسكيناً ، واحشرني في زمرة المساكين)) .

وإذا كانت نساؤه يتطلّعن إلى مسرّات الدنيا ويسعَيْن إليها ، فلهُنَّ ذلك ، شرط أن يفارقنه .

إنّه الداعية الأوّل ، والمال ورغد العيش يثني الداعية عن دعوته ويشدّه إلى أثقال الدنيا وملذّاتها .

فأنزل الله تعالى عليه : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا (٢٨) وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالدَّارَ الْآخِرَةَ فَإِنَّ اللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَاتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا (٢٩)) [سورة الأحزاب الآيتان : ٢٨ـ ٢٩] .

فبدأ رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بقراءة هاتين الآيتين على نسائه ، وبدأ بعائشة رضي الله عنها ، ولما كانت رضي الله عنها أثيرة لديه صغيرة السنِّ ، وقد تتطلّعُ إلى الحياة الدنيا ، ولأنها المرأة الوحيدة التي تزوجها بكراً ، وأبوها رضوان الله عليه ، أقرب أصحابه إلى نفسه قال لها : ((إني ذاكر لك أمراً ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك)) .

فقالت : ما هو يا رسول الله ؟

فتلا عليها الآيتين الكريمتين ، ونظر إليها يقرأ ما في نفسها .

فقالت : يا رسول الله ، أيها الزوج العظيم ، أفيكَ أستأمر أبويَّ ؟! أتتخلّى المرأة من أجل حطام الدنيا الفانية عن أشرف رسول وأكرم رجل ؟! .

قال: ((بوركت أيتها الصديقة ، يا بنت الصدّيق)) .

قالت: يا رسول الله إنها الدنيا الفانية من جهة ، ويقابلها في الجهة الثانية الله تعالى خالق الكون ومدّبره وسيده سبحانه والدار الباقية ذات النعيم الأبدي الخالد . ورسوله الكريم أحب الناس إلى قلبي.

فتبسَّم رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وضمَّها إليه . ثم انطلق إلى زوجاته الأخريات الكريمات فقلن ما قالته عائشة ، فشكر لهنّ إيمانهنّ وأكرمهن فأطلق عليهن ((أمهات المؤمنين)) .

إنَّ بعض مَنْ يتلفّعن بعباءة الدعوة من النساء الآن تراهُنّ لا يحضرْن لقاءً بالثياب التي كانت عليهن في اللقاء الماضي .. فإذا نبَّهْتَهُنَّ إلى ذلك قلن : هذا أدعى إلى الاحترام !!!

وقلن : نجاري النساء حتى ندخل إلى قلوبهنّ !!!

وقلن : إن الله يحب أن يرى أثر نعمته على أمَتِه !!!

وقلن ، وقلنَ ، وحسبنا الله ونعم الوكيل . ولا حول ولا قوة إلا بالله .

عزيز عليه ما عنتّم

تمت بيعة العقبة الثانية في السنة الثالثة عشرة للبعثة : وكان من بنودها أن يهاجر المسلمون من مكة إلى إخوانهم في يثرب ، فموطن الإتسان الحقيقي وداره التي يجب أن يسعى إليها ، ويعيش فيها ، ذلك المكان الذي يتعبّد فيه بحريّة ، ويقيم فيه شعائره دون أن يكون عليه رقيب ، ويحسُّ فيه بشخصيته، ويصنع فيه مع إخوانه في العقيدة مجتمعاً مسلماً . . إنها المدينة المنوَّرة إذاً . .

وأمر الرسول الكريم . صلى الله عليه وسلم . المسلمين أن يهاجروا إليها ، والهجرة ليست أمراً سهلاً ، فهي إهدار للتجارة وتضحية بالمصالح المادية ، يترك الإنسان متجره ، وأرضه الزراعية ، ومصنعه ، وبيته الذي تعب في إنشائه ، وقد يدع أهله وأولاده ومَنْ يحب لينجو بنفسه ودينه . . ولا مفرَّ من التضحية وإن كانت فادحة الثمن ليكسب ما هو أثمن وأغلى وأدوَمُ . . .

وبدأ المسلمون يهاجرون . . كلٌّ بطريقته ، وبدأ المشركون يتعقَّبونهم ويمنعونهم لشعورهم أنَّ مَنْ يترك كلَّ شيء لا بدَّ أن يكون في نفسه قوياً ، وسيعود ليهددهم في عقر دارهم ، ويستعيد حقّه ، ويقضي عليهم . وكان هناك نماذج من المنع .

١ . لما أراد صهيب رضي الله عنه الهجرة جعل ماله في مكان آمن ثم انطلق نحو المدينة، فأحسَّ به المشركون ، فقد كان حانوته . مصنع الحدِادَةِ للسيوف وأسّنةِ الرماح . مغلقاً . . وطاردوه بخيولهم حتى صاروا على مقربةٍ منه ، فشعر بهم وأسرعَ إلى تلٍّ قريب يشرف عليهم وانتضى أحد سهامه ووضعه في قوسه وسدَّد نحوهم ، فلما عرفوا فيه صدق ما انتوه قالوا : ما أنتَ فاعل يا صهيب ؟

قال : ولأيِّ شيء تبعتموني يا أعداء الله ؟!

قالوا وقد كشروا عن نواياهم الخبيثة : أتيتنا صعلوكاً حقيراً فكثر مالك عندنا ، وبلغتَ الذي بلغتَ ، ثم تريد أن تخرج بمالك ونفسك ؟

قال لهم : تعلمون أنني والله أشدكم إصابة للهدف ، وأن سهمي لا يخيب ولن تصلوا إليَّ حتى تفرغ سهامي وأقتل بكل سهم رجلاً .

قالوا : هات مالك نَعُدْ أدراجنا .

قال : لا أحمل منه شيئاً وقد تركته في مخبأ في مكة .

قالوا : دلّنا عليه إذاً . .

قال : هو في مكان كذا وكذا وأنتم تعلمون صدقي .

فانطلقوا إلى ذلك المكان الذي حدَّدَه ثم توقف أحدهم ، فقال ألا يكون كاذباً في قوله لنا آنفاً ؟

قالوا له : نحن نعرف أصحاب محمد لا يكذبون . . فقد رأوا المال في المكان لذي حدّدَه .

وحين وصل إلى المدينة المنوّرة استقبله رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ باشّاً ، فرحاً بقدومه قائلاً له : ((ربح البيع أبا يحيى ، ربح البيع أبا يحيى)) .

٢ ـ كان أبو سلمة رضي الله عنه أوّل المهاجرين ـ قبل العقبة الكبرى بسنة ـ وخرج بزوجته أم سلمة وابنه سلمة ، فلما أجمع الخروج قال له أصهاره : لا نستطيع أن نغلبك على نفسك، أما زوجتك فهي ابنتنا ، فعلام نتركك تسير بها في البلاد ، لا والله لا تأخذها، فانتزعوها منه ومعها ابنها .

غضب آل أبي سلمة حين رأوا أهل زوجته قد منعوها أن تسافر معه فقالوا : هذه

ابنتكم حبستموها ، فعلام نترك سلمة معها ؟ والله لا نترك ابننا معها ، وتجاذبوا الغلام بينهم فخلعوا يده ، وذهبوا به .

وانطلق أبو سلمة وحده إلى المدينة ، وكانت أم سلمة بعد ذهاب زوجها ، وضياع ابنها ، تخرج كل صباح إلى خارج المنازل تبكي على تشتت أسرتها حتى تمسي . . ومضى على ذلك سنةٌ ، فرَقَّ لها أحد ذويها ، وقال : ألا تخرجون هذه المسكينة ؟!! فرَّقتم بينها وبين زوجها وابنها ، فرَقّوا لها وقالوا لها : الحقي بزوجك إن شئت ، فاسترجعت ابنها من عصبته ، وخرجت تريد المدينة وليس معها أحدٌ مِنْ خلق الله . . والمدينة تبعد عن مكة ثلاث مئة ميل ، ولكنْ ما تقول في قسوة القلوب ، وجفاء الطبع ؟!! حتى إذا كانت بالتنعيم . خارج مكة صوب المدينة . لقيها عثمان بن طلحة بن أبي طلحة قال لها : هل أفرج عنك يا أمَّ سلمة ؟ وكان يعرف حالها ، قالت : نعم . . قال : أزمعت اللحاق بزوجك ؟ قالت : نعم فلم تطب نفسه أن يتركها تسير وحدها لا معين لها ، فشيعها إلى المدينة . وهو صاحب نخوة ومروءة . فلما نظر إلى قباء قال : زوجك في هذه القرية ثم انصرف راجعاً إلى مكة .

٢ . تواعد عمر بن الخطاب رضي الله عنه وعياش بن أبي ربيعة المخزومي وهشام بن العاص بن وائل موضعاً يصبحون عنده ، ثم يهاجرون إلى المدينة المنوّرة ، إلا أن هشام بن العاص حبسه أهله حين علموا بعزمه مغادرة مكة فهاجر عمر وعياش وحدهما ، ولما قدما المدينة نزلا بقُباء . . ولم تمض مدة حتى قدم إلى قباء أبو جهل وأخوه الحارث يريدان عيّاشاً . وأم الثلاثة واحدةٌ . فقالا له : إن أمك نذرت أن لا يمس رأسها مشط ، ولا تستظل بشمس حتى تراك ، وكان باراً بأمه ، محباً لها ، فرقَّ قلبه ، وأزمع السفر إلى مكة ، فقال له عمر : يا عياش ؛ والله ، إن القوم يريدون أن يفتنوك عن دينك ، ويحبسوك ، ويعذبوك ،

فاحذرهم ، فوالله لو كثر القمل في رأس أمك لامتشَطَتْ ، ولو قد اشتد عليها حرُّ مكة لاستظلت ، وما هذان إلا كاذبان مدّعيان . فأبى عياش إلا الخروج معهما ليَبَرَّ قَسَمَ أمه

فقال له عمر : إذا أبيت نصيحتي وقررت الخروج معهما ، فخذ ناقتي هذه ، فإنها ناقةٌ أصيلة ذلول ، فالزم ظهرها ، وراقبهما ، فإن رأيت في القوم ريبة فانج عليها .

فخرج عليها معهما ، حتى إذا كانوا في بعض الطريق ، يلينان له القولَ ويبتسمان في وجهه ، قال أبو جهل : والله يا أخي ؛ إنَّ بعيري هذا غليظ هجين ، أفلا تردفني على ناقتك هذه ؟ قال عياش : بلى ، فأناخ ناقته ، وأناخا ليتحول أبو جهل عليها ، فلما استووا بالأرض عَدَوَا عليه ، وأوثقاه ، وربطاه ، وظل هكذا على حالته هذه حتى وصلوا إلى مكة فدخلوها نهاراً ليراه الجميع مكبلاً ، فلا يجرؤ أحد على الهجرة ، ومخالفة المشركين ، وقالا : يا أهل مكة هكذا فافعلوا بسفهائكم كما فعلنا بسفيهنا هذا !!

وبقي عياش في قيد الكفار حتى إذا هاجر رسول الله ـ صلى الله علي وسلم ـ قال يوماً: ((مَن لي بعيّاش وهشام ؟! فقد طال أسرهما وأرجو الله أن يفرّجَ عنهما . . فهما محبوسان في بيت لا سقف له إمعاناً في التعذيب ، تلفحهما الشمس في النهار ، ويؤذيهما البرد في الليل ، وتحمل إليهما طعامهما امرأة)) .

قال الوليد بن الوليد : أنا لك يا رسول الله بهما .

قال الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((سِرْ على بركة الله)) .

فقدم الوليد مكة مستخفياً ، ولقي المرأة تحمل طعامهما ، فتبعها حتى عرف موضعهما ، فلما أمسى تسوَّر الجدار، وقطع قيدهما، وحملهما على بعيره حتى قدم المدينة.

ولا تسل عن فرحة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ والمسلمين بهم جميعاً .

عين تبوك

قال الصحابة رضوان الله عليهم : يا رسول الله قلَّ الماءُ ، فما نكاد نجد ماءً . قالوا ذلك وهم منطلقون إلى غزوة تبوك .

قال : ((تشربون إن شاء الله تعالى)) .

فما إن ساروا ساعات حتى قال لهم رسول الله . صلى الله عليه وسلم . : ((إنكم ستأتون غداً إن شاء الله تعالى عين تبوك ، وإنكم لن تأتوها حتى يُضحي النهارُ ، فمن جاءها فلا يمسَّنَّ من مائها حتى آتي)) .

وانطلق الجيش يغذُّ السير ليله حتى أصبح ، فقاموا يتيممون لصلاة الفجر ، فلما أدّوها تابعوا المسير حتى وصلوا عين الماء فوجدوها لا ماء فيها سوى رشح ضئيل لا يكفي أحداً .

سأل رسول الله أصحابه : ((هل مسّها أحدٌ ؟)) قالوا : يا رسول الله سبقنا إليها فلان وفلان وكانا منافقين فلم يأبها لأمر رسول الله . صلى الله عليه وسلم . حين نهى عن مسِّها وشربا منها ، فلعن رسول الله . صلى الله عليه وسلم . المنافقين ثم قال : ((ألم أنهكم أن تمسّوها ؟! فسكتا وعيونهما تنبئ عن غضب دفين ، ثم نزل إلى العين ووضع يده تحت الوشَل ((الطين المبلول)) فجعل يصب في يده ما شاء الله أن يصبَّ حتى اجتمع له قليل من الماء ، توضأ منه ثم نضحه في العين ، ودعا بما شاء الله أن يدعو به . .

ولم تمض هنيهة حتى كبر المسلمون وهللوا ، وصلوا على نبيهم الكريم ذي الفضل العظيم ، فقد رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم . . فماذا رأوا وماذا سمعوا ؟!! .

لقد تفجّر الماء من الصخر انفجاراً فملأ النبع واندفع بقوّة في مجراه ، يتسع ويتّسع ،

وسمعوا لانفلاق الصخر صوتاً كحسِّ الصواعق ، وانفلق مُؤذناً للماء الحبيس أن ينطلق . .

فشرب الناس ، واستقوا حاجتهم منه ، وملؤوا أوعيتهم وسقوا دوابّهم .

قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((لئن بقيتُم ، أو بقي منكم ليسمعن بهذا الوادي وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه)) .

وتبوك الآن واحة رائعة الاخضرار كثيرة الماء ، واسعة الانتشار . .

اللهم صلِّ على المبارك محمد ، واحشرنا معه في زمرة عبادك الصالحين اللهم آمين .

هذا النبي وعين الله تكلؤه   قد فجَّر الأرض بالأمواه تندفع

يسقي العطاش بإذن الله خالقِنا   وكم بفضل رسول الله ننتفع

وها هي الماء حتى الآن جارية   وفي تبوك غراس الخير تتسع

قد أكرم الله بالمختار أمته   على هداه إذا سرنا سنرتفع (١)

مزاحه . صلى الله عليه وسلم .

روى أنس بن مالك قال :

١ . إنْ كان النبيُّ . صلى الله عليه وسلم . ليخالطنا . أي : يلاطفنا ويمازحنا . حتى يقول لأخٍ لي ((يا أبا عُمير ، ما فَعَلَ النُّغَير ؟)) .

وكان للصغير طيرٌ يلعب به ، فمات ، فحزن عليه .

٢ . وكان . صلى الله عليه وسلم . يمازح نساءه ، فهذه عائشة رضي الله عنها كان رأسها يؤلمها ، فقالت : وارأساه ، فأراد الرسول اللطيف أن يمازحها فقال : ((يا عائشة لو أنّك متِّ لساعتك ، وأنا حيَّ لاستغفرتُ لك ، وكفّنتُكِ وصليتُ عليك ، وهذا خير من أنْ تموتي بعدي ، ولن تجدي مثلي مَنْ يفعل ذلك)) .

فنادت : واثكلياه . . أتريد أن أموت يا رسول الله لتتخلّص مني ؟! أنتم هكذا يا معشر الرجال ، تريدون أن تموت نساؤكم لِتَرَوْا غيرهُنَّ ، ولو أني متُّ لما اهتممتَ بي ، ، ولأتيتَ إلى بعض نسائك في بيوتهن تلاعبهن وتداعبهن وأنا ما أزال مسجّاةً على فراش الموت .

٣ . وجاء رجل إلى النبي . صلى الله عليه وسلم . يسأله أن يهبه دابّة يبلغ بها أهله فقال له النبي . صلى الله عليه وسلم . :

((إني حاملك على ولد الناقة)) .

قال : يا رسول الله ، ما أصنع بولد الناقة ؟

وظنَّ أنه يعطيه ولد الناقة الصغير، ونسي أن الناقة تلد الحُوارَ فيكبر حتى يصير جملاً.

قال . صلى الله عليه وسلم . : ((وهل يلدُ الإبلَ إلا النوقُ ؟!)) .

٤ ـ وجاءت امرأة فسألته السؤال نفسه قائلة :

((يا رسول الله احملني على بعير)) .

قال لمن عنده : ((احملها على ابن بعير)) .

قالت : ما أصنع به ؟ وما يحملني يا رسول الله !

قال عليه الصلاة والسلام : ((وهل يجيء بعيرٌ إلا ابنَ بعير)) .

٥ ـ وجاءت امرأة إلى الرسول الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقالت : إن زوجي يدعوك . .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((مَنْ هو ؟ أهو الذي بعينيه بياض ؟)) .

فقالت : ما بعينيه بياض ! تقصد أنّه يرى جيداً وعيناه سليمتان .

فقال ـ صلى الله عليه وسلم ـ : ((بل بعينه بياض)) . .

قالت : لا والله . .

وضحك رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ وقال :

((ما من أحد إلا بعينيه بياض ـ وهو الذي يحيط بالحدقة)) .

٦ ـ حتى إن أصحابه رضوان الله عليهم يمازحونه ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقد جاء عوف بن مالك الأشجعي إلى خيمة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ في غزوة تبوك ، وكانت من جلدٍ صغيرةً لا تتسع إلا للقليل ، فسلّم عليه فردّ السلام على عوف وقال : ((ادخل يا عوف)) . .

فقال عوف : أكُلّي أدخل يا رسول الله ؟ موحياً بصغر الخيمة ، قال ـ صلى الله عليه وسلم ـ مبتسماً : ((كُلّك)) فدخل .

الخوض مع الخائضين

رأيته في رهط من الفسقة يسخرون بالمسلمين ، وينعتونهم بالجهل والعودة إلى عصر الانحطاط والهمجيّة !! ويلمزون الذين يُحَجّبُون نساءهم فلا يجلس الرجال إلى النساء ، ويمنعون أنفسهم من تعاطي الخمور !! ويحفظون ألسنتهم عن الغيبة والنميمة والقذف والشتائم ، وأبصارَهم أن تقع فيها سهام إبليس .

قلتُ له : يا هذا ألست تصلّي ؟ قال : بلى .

ألستَ تخالفهم في فجورهم ؟ قال : بلى .

أما ترى الجلوس معهم يفتن النفس ، ويوقع في مستنقع الإثم وبئر الفاحشات ؟

قال : لي معهم مصالح أقضيها ، وأنا لا أتأثرُ بهم .

قلت : ولكن النقطة إلى النقطة ماء يتنامى ، والنكتة إلى النكتة حفرة تتسع ، ومن اعتاد على شيء وقع فيه ، ثم أدمنه .

قال : أعرف نفسي ، فأنا لا أشاركهم في خوضهم .

قلت : ولا تناقشهم كذلك ، ولا تقف أمامهم منبّهاً ومذكراً ؟!

قال : لست داعياً مثلك ، أنا من عامة الناس !!

قلت : ألا تراكَ مخطئاً فيما أنت فيه ، منحدراً إلى هاوية قد تتردّى فيها ، ولا حين مندم ؟!

وتذكرت قول الله تعالى في سورة الأنعام الآية ٦٨ : (وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨))

كان أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ يخالطون هؤلاء المنافقين والمشركين واليهود ولا يسمحون لأحد منهم أن يفسد في المجلس كلاماً كان أم عملاً ، وإذا بدر من أولئك ما يسيء أوصل هذا إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ، ولم يألُ أن يهدد ويتوعّد ، فالإخلاص للعقيدة أهم من صحبة أعدائها .

كان عمير بن سعيد ربيباً لجُلاس بن سويد بن الصامد ، وكان يحبّه لأنّه رباه وكان له أباً بعد أبيه .

سمع عمير هذا من زوج أمه كلمةً نابيةً قالها في النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فقال : والله يا جُلاس ، إنك لأحب الناس إليّ وأكرمهم عندي فضلاً ، ولا أريد أن يصيبك مكروه أبداً ، ولكنك قلتَ مقالة لئن أوصلتُها لأفضحنَّك ولئن سكتُّ عنها ليهلكنَّ ديني، والدين أغلى عليَّ وأكرم . . ثم مشى إلى رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فذكر له ما قاله جُلاس . وجاء الجلاس يستغفر الله تعالى ويعتذر إلى الرسول صلى الله عليه وسلم ، ويبكي أسفاً وندماً . وكانت توبته صادقة ، وحَسُن إسلامه بعد ذلك .

واجتمع المنافقون يوماً في المسجد يتناجون بالإثم لا يوفِّرون هذا الدين العظيم ولا حامله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ولا المؤمنين .

وسمعهم النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فأمر بطردهم من المسجد ، فأخرجهم الصحابة إخراجاً عنيفاً .

هذا أبو أيوب الأنصاري المسلم الجليل الشأن ضائف رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من بني النجار يشدُّ ابن عمه سادن آلهتهم في الجاهلية من رجله فيسحبه من المسجد ويرميه خارجاً ، ثم يقبل إلى قريبه رافع بن وديعة ، فيمسك بتلابيبه وينترُه نتراً شديداً ويلطم وجهه ثم يخرجه من المسجد .

قال محمد بن علي رضي الله عنهما : لا تجالسوا أهل الخصومات ، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله .

قال ابن العربي : هذا دليل على أن مجالسة أهل الكبائر لا تَحِلُّ .

وقال أحدهم : مَنْ خاض في آيات الله تُرِكَتْ مجالستُه ، وهُجِرَ مؤمناً كان أو كافراً .

ومنع الجمهور . إلا لسبب . الدخول إلى أرض العدو ، ومجالسة الكفار وأهل البِدَع .

وقال فاسق لأبي عمران النخعي : اسمع مني كلمة يا أبا عمران .

قال أبو عمران منتفضاً : ولا نصف كلمة .

وقال الفُضيل بن عياض : من أحبَّ صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرجَ نور الإسلام من قلبه ، ومَنْ زوّج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها ، ومَنْ جلس مع صاحب بدعة لم يؤتَ الحكمة ، وإذا علم الله عزَّ وجلَّ من رجل أنه مُبغض لصاحب بدعة رجوتُ أن يغفر الله له .

وقال ﷺ: ((مَنْ وقَّرَ صاحبَ بدعةٍ فقد أعان على هدم الإسلام)) .

وأقول راجياً عفو ربي ومغفرته :

ليس في قلبي سوى الـ   إيمان بالله العظيمْ
فهو ربي ، وهو حسبي   وهْوَ بي البرُّ الرحيمْ
لا أوالي في حياتي   غير مولاي الكريم
لا أجاري الفاجر الـ   زنديق في سوء الكلام
لا أوالي غير دين الـ   مصطفى خير الأنام
فهو حِبّي ، نورُ عيني   ولـه مني السـلام

الفهرس العام

المقدمة ٣
❖نبيُّ الرحمة والتواضع ٥
❖إنّه الفاروق ٩
❖من وحْيِ حديث أم زرع ١١
❖بلال يؤذن ١٥
❖الشيماء أخت الرسول ١٨
❖فَضالة بن عمير الليثيّ ٢٣
❖ربّ رحيم أرسل نبيّاً رحيماً ٢٦
❖عدي بن حاتم ٢٩
❖خُبثُ المنافقين ٣٣
❖أصحاب رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ ٣٦
❖تَيْسٌ مستعار ٤٤
❖إسلامُ ثقيف ٤٧
❖صورٌ من الرحمة ٥٢
❖خبث اليهود ٥٥
❖حِلم رسول الله ورحمته ٥٧
❖وما علّمَناهُ الشعر ٦١
❖وكلْناه إلى إيمانه ٦٤
❖مَهر غالٍ ٦٦
❖اضربوا لي معكم بسهم ٦٩
❖أبو طلحة وسعد ـ رضي الله عنهما ـ ٧١

❖زاهر . . . وابن مسعود رضي الله عنهما ٧٦
❖ثم أسلمتُ ٧٩
❖أمهات المؤمنين ٨٢
❖عزيز عليه ما عنتّم ٨٥
❖عين تبوك ٨٩
❖مزاحه ـ صلى الله عليه وسلم.. ٩١
❖الخوض مع الخائضين ٩٣
الفهرس العام ٩٧

تم بحمد الله